٢٥٥

HARLEQUIN

روايات احلام

لن تنتظرنا الحياة

هيلين بروكس

www.elromancia.com
مرمورية

لن تنتظرنا الحياة

تجربة مريرة وماضٍ أليم عرفتهما هنرييتا نواك جعلاها تفقد ثقتها بالرجال ودفعاها إلى العيش بعزلة، فرفضت الحياة ومباهجها وتجنبت الاختلاط بالناس.

وفجأة، فقد عملاق أسمر وعيه أمام بابها، فهل ساقه القدر إليها؟

رأى جارد شرارة غامضة في عينيّ هنرييتا، وأحسّ بما ترفض تعترف به: أنها بحاجة لأن تحب. فهل سيتمكن من إقناعها، برغم مقاومتها، أن تترك الماضي وأن تؤمن بالحياة والحب من جديد؟

لبنان: ٢٥٠٠ ل.ل.
سوريا: ٧٥ ل.س.
الأردن: ١.٥ دينار
الكويت: ٧٥٠ فلس
الإمارات: ١٠ دراهم
قطر: ١٠ ريال

البحرين: ١ دينار
السعودية: ١٠ ريال
مصر: ٦ جنيه
المغرب: ١٥ درهم
تونس: ٢ دينار
عمان: ١ ريال

ISBN 9953-15-088-5

روايات أحلام

مجلة قصصية أسبوعية

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م

المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية

محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

بترخيص خطي من *Harlequin Enterprises II B.V*

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال

تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة *Harlequin Enterprises II B.V.*

كل العلامات التجارية استعملت

بترخيص من شركة *Harlequin Enterprises II B.V.*

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:

The Marriage Quest

First published in Great Britain 1999

Harlequin Mills & Boon Limited

© Helen Brooks 1999

Translation © Dar El-Farasha - 2002

ISBN 9953 - 15 - 088 - 5

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -

ص.ب: ٨٢٥٤/ ١١ هاتف/ فاكس: ٩٦١-١-٤٥٠٩٥٠- بيروت - لبنان

Email: dfarasha@cyberia.net.lb

أعزائي القراء

لأننا عوّدناكم دائماً على أجمل الروايات العاطفية... ولأننا نعرف أن قراءنا لا يرضون بأقل من الأفضل... ولأن هدفنا دوماً المحافظة على واحة حب تخفّف من وطأة الآلام والهموم في عالمنا... لهذا، اخترنا أن تكون هديتنا إلى قرائنا في بداية هذا القرن هي انضمامنا إلى أسرة هارلكوين **Harlequin** العالمية.

لماذا هذا الاختيار؟

لأن شركة **Harlequin** هي رائدة الروايات الرومانسية في العالم أجمع، وهي تتعاون مع أفضل الروائيات في هذا المجال، وتصدر شهرياً أكثر من ٧٠ عنواناً جديداً.

ما هي نتيجة هذا الاختيار؟

ستظل روايات أحلام على سابق عهدها من حيث اختيار القصة الشيقة والأسلوب الرفيع واللغة السليمة... والتغيير الذي ستلاحظونه هو في زيادة عدد الروايات شهرياً، وتنوع الموضوعات لتناسب جميع الأذواق، وسيكون لمشاركتكم باختيار المواضيع المفضلة لديكم وبأسماء الروائيات اللاتي أحببتموهن، الدور الأساسي.

بكل إخلاص

أسرة أحلام

هيلين بروكس

تقيم هيلين بروكس في «نورثامبتونشير» وهي متزوجة ولها ثلاثة أولاد. إنها مؤمنة ملتزمة وربة منزل وأم منهمكة، مما لا يدع لها الكثير من أوقات الفراغ. من هواياتها القراءة والسباحة والعناية بالحديقة والتنزه مع كلابها القوية النشيطة. حققت هيلين حلمها القديم بالكتابة حين أرسلت في سن الأربعين أولى قصصها لـ «ميلز أند بونز».

١ ـ الحارس الأمين

أصغت هنرييتا بمزيج من الدهشة وعدم التصديق، لصوت قرع على الباب الأمامي. وظنت لأول وهلة، أنها تتخيل ذلك لا غير. إلا أن مورفي حرك رأسه الضخم، ودمدم بصوتٍ خفيض. فقالت باعجاب:

ـ كلب طيب مورفي.

نهضت مسرعة، وهي تحدق في ساعتها. كانت السماء مكفهرة كعادتها في شهر تشرين الثاني. ثم فكرت أنها العاشرة الآن. وفي افضل الاوقات لا يأتي لزيارتها أحد، فمن ذا الذي أتى في هذا الجو العاصف؟

أسرعت إلى السلم الخشبي لتنزل درجاته الملتوية. وعندما وصلت إلى الطابق الأرضي من الطاحونة المائية التي تعود إلى القرن الثالث عشر، توقفت عند المدخل. كانت يدها تعبث بطوق مورفي الجلد العريض. سمعت الطرقات على الباب من جديد، فأدنت مورفي قرب ساقيها وفتحت الباب مبقية على سلسلة الأمان في مكانها.

ـ نعم؟ من هناك؟

صاحت وهي تنظر عبر شق الباب، فيما تابع مورفي الدمدمة، مكشراً عن أنيابه الحادة. امتنّت هنرييتا في سرها له على هذا الصنيع.

ـ آنسة نواك؟

إنه صوت رجل متحشرج ضعيف. لكن هنرييتا لم تكن ترى حتى تلك اللحظة سوى شبح رجل ضخم، في ضوء المصباح الخافت.

ـ الآنسة هنرييتا نواك؟

ـ أجل.

ولم يعجبها هذا أبداً، ثم وجدت نفسها تصرخ في رعب مع صوت انهيار وتحطم شيء في الخارج دفع الباب بشدة، فاعترضته السلسلة.

لقد وقع.. كائناً من يكون في الخارج.. وقع. وفكرت هنيهة قبل أن تقول: «ماذا حدث؟ هل أنت بخير؟».

ونظرت إلى الكومة التي على الأرض، فلم يأتها الرد.

تبادلت النظرات مع مورفي. لقد كان كلب الرعاة الألماني الضخم هو الآخر يعبر عن دهشته. لكنه توقف فجأة عن الدمدمة، ولم تدر ما معنى ذلك بالنسبة له. ربما شعر أن الخطر قد زال، وأنها ستقفل الباب حتماً. لكن ماذا ستفعل بالجسد الملقى على الأرض؟ لا يمكن أن تتركه هكذا.

وقبل أن تفتح الباب مرة أخرى أخذت عصا البايسبول التي تستبقيها في المدخل لمثل هذه الظروف الطارئة، وأحست بالتفاهة قليلاً..

كان الرجل ضخماً جداً، وقد عفّره الوحل، والدم يغطي أجزاء من جسده وهو لا يزال بدون حراك.

لكزته هنريتا بلطف بقدمها. لم يكن هذا تصرفاً حسناً على أيّ حال! واطمأنت قليلاً.. فهو لم يتحرك من جراء لكزتها.. وحين دار مورفي حوله يتشممه، وحرك ذراعه المسترخية بأنفه الأسود الكبير، افترضت أن وقوعه أرضاً حقيقي.. بدا كذئب ضخم كثيف الشعر، لا ككلب أليف. وشكت في أن يتمكن أحدهم من أن يمثل دور الميت أمام هذين الفكين القاتلين.

وضعت عصا البايسبول من يدها قبل فتح الباب بالكامل، وخطت إلى الخارج. ركعت أمام الرجل العملاق الفاقد الوعي، وأبقت صوتها منخفضاً: «هل تستطيع سماعي؟ أرجوك.. حاول أن تفتح عينيك».

إنه جذاب جداً، وربماهذه ليست المناسبة لتفكر في ذلك. لكنها لم

تستطع منع نفسها من ملاحظة وجهه الأسمر الطافح بالرجولة. كان أخشن من أن يوصف بالوسيم، فالحاجبان الاسودان الكثيفان، والانف الذي يشبه منقار النسر، والشفتان العريضتان والشعر الأسود، تتمازج لتعطي مظهراً أجلّ من أن يسمى آسراً.

ثم تأوه قليلاً.. وحدّق بعينين زرقاوين ثاقبتين إلى عينيها البنيتين الناعمتين. أحست بالصدمة وعدم التوازن، فوقعت إلى الخلف، واشتبكت ذراعاها وساقاها معاً من دون احتشام.

وقفت على قدميها حتى قبل أن تلامس مؤخرتها الأرض، ونظرت إلى مورفي مطمئنة إياه، بعد أن شعرت بما أصدر من أصوات أنه على وشك الحركة. ثم انحنت مجدداً نحو الغريب، وقالت بهدوء:

ـ لا بأس عليك.. لقد فقدت الوعي.. وهذا كل ما في الأمر، هل تظن أنك قادر على الدخول؟ لقد بدأ المطر ينهمر.

ـ اللعنة..

حين حاول الحركة، ظنت أنه سيتهاوى لكنه أزاح يدها التي حاولت مساعدته، من دون أن يسمح لآهة أخرى أن تفلت من شفتيه البيضاوين. وجر نفسه ليقف.. ثم دلف إلى الداخل، حتى جلس أسفل السلم، وأسنانه تصطك من الألم.

ـ لقد تعرّضت لحادث.

هزّ رأسه وأوماً بالإيجاب، ثم أخذ يتنفس بصعوبة لبضع لحظات. وأخيراً قال باقتضاب: «لقد أجفل طير دراج جوادي فسقطت أرضاً».

هزت رأسها بوقار: «عظيم».

استند الرجل إلى الجدار وأغمض عينيه.. فتابعت، بصوت متوتر قليلاً: «فنجان شاي ساخن سيساعدك».

ـ شكراً لك.. لكن من الأفضل أن تجعلي هذا قهوة قوية.. أعتقد أن ساقي مكسورة وأنا مصاب بضربة شديدة على رأسي، كان يمكن أن تطرح ثوراً. وإذا اضطرني الأمر إلى عملية جراحية لساقي فمن الأفضل ألاّ

أتناول مخدراً الآن.

ـ أوه.. أجل.. بالطبع.

ونظرت هنريتا إلى ساقه الممدودة أمامه، وراعها أن تكون في وضع حرج للغاية. فتح عينيه، وقال لها بصوت خافت: «ليست سيئة كما يبدو».

في الواقع، لو كان الوضع مختلفاً لأقسمت أن في صوته شيء من المرح.. وأضاف: «لكن، قد يكون من الأفضل أن تتصلي بخدمات الطوارىء وتطلبي منهم إرسال سيارة إسعاف قبل أن تحضّري القهوة».

ـ أجل.. أجل.. سأفعل هذا الآن، جهاز الهاتف في الطابق الأعلى.. فهل ستكون على ما يرام...؟

وتلاشى صوتها والعينان الزرقاوان تلاحقانها، وتذهبان عنها الخوف.

ـ سأكون بخير.

وابتسم، وأحست كأنها صدمت بتيار كهربائي وهي ترى وجهه المتصلب وقد انقلب ليناً:

ـ عليك اجراء تلك المكالمة لا غير.

بدا أن مورفي قد أخذ على عاتقه لعب دور الكلب الحارس..

تركته هنريتا هناك بعد محاولة واحدة لحثه على مرافقتها الأمر الذي تجاهله بصبر.. وبعد أن تقدمت بجفاء أمام الرجل، ركضت إلى الطابق الأول من المبنى ذي الثلاث طبقات. وأدركت وهي تجري المكالمة أنها لا تعرف شيئاً عن هذا الغريب.. فهي لم تسأله حتى عن اسمه.. ثم أقفلت عائدة لترى ما إذا كانت قادرة على فعل شيء ما له.

كان يجلس حيث تركته.. ومورفي لا يزال مرابطاً إلى جواره. بدا لها أن حالته تزداد سوءاً، فالجرح الملطخ بالوحل على جبهته ينزف، وسترته وقطعة قميصه اصطبغتا بلون أحمر قانٍ.

ـ أنت تنزف.

وما إن تلفظت بهذا، حتى تساءلت عما إذا كان قدرها، وإلى الأبد، أن تقول أشياء غبية وساذجة أمام هذا الرجل.

أرجع خصلة شعر سوداء إلى الخلف وقال: «إنها غلطتي كنت أتحسس بيدي الجرح فنزف مجدداً.. لا تقلقي».

لكنها قلقت.. كان الجرح عميقاً، ومن الواضح أنه نزف الكثير من الدماء. هزت رأسها بهدوء، واتجهت إلى المطبخ لتسخين الماء قبل أن تجمع كمية من المناديل الورقية وتصنع منها ضمادة، وتضع فوقها قليلاً من المطهّر وتعود إليه.

هز رأسه وهو يأخذ الضمادة، لكنه لم يقل شيئاً، ووجدت هنريتا نفسها تهذر وهي تقف أمامه.. ولم يكن السبب قلقها لإصابته، اعترفت بهذا لنفسها ساخرة.. إنه رائع، حتى وهو متألم وضعيف.. إنها لا تعرف السبب، ولو كان بامكانها أن تبيع مشاعرها كلها، لجنت منها ملايين الدولارات.

سألت بعد دقيقة أو اثنتين لتطمئنه أنه سيكون بخير:

ـ قلت إن جوادك رماك؟ أنت من هذه النواحي إذن؟

ـ أجل.. أنا من هنا.

ارتسمت على وجهه شبه ابتسامة مصطنعه، ثم أكمل بصوت هادىء:

ـ وأنت تستأجرين المطحنة لفترة كما فهمت؟

تجمد جبينها للحظة، ثم وبخت نفسها لغبائها.. بالطبع بما أنه أحد السكان المحليين، لا بدّ أن يعرف أن هناك أناساً في هذا الجزء من هيرفورد شاير يدعون بالمدنيين.

لكن، مع كل الذكريات الأليمة التي تحاول تركها وراءها، والألم المدمر الذي لازم ليلها ونهارها في البداية، عزلت نفسها عن عمد، ورفضت بأدب وحزم الدعوات.

هزت رأسها نحوه: «لقد استأجرتها لثلاث سنوات».

سأل بهدوء وهي تهم بالعودة للمطبخ: «أوليس المكان هنا موحشاً لتعيشي وحدك؟».

ـ أنا لست لوحدي.. مورفي معي.

إذن، الكلب هو رفيقها الوحيد.. وضاقت العينان الزرقاوان.. إنها امرأة جميلة حقاً.. فما الذي يدفع مثل هذه المرأة ذات العينين البنيتين الواسعتين، والشعر الكثيف المجدول، إلى حياة النسك في مثل هذا السن الصغير؟ يوجد شيء غامض هنا. هل عليه أن يكتشف سر هذا الغموض الآن؟ أم كان عليه أن يزورها قبل هذا الوقت بزمن طويل؟

ـ سآتيك بشاي ساخن منعش، ليذهب عنك آثار الصدمة.

أفاق قليلاً ليجّدها واقفة أمامه.. عيناها واسعتان وصارمتان، وفمها قد انتظم باستقامة.

ـ شكراً لك.

أخذ الكوب منها بارتباك، فلاحظ نمشاً خفيفاً على أنفها، يناسب شعرها الكستنائي.. لكن، لماذا يجد هذا النمش مثيراً؟ إنه لا يدري.. فهو لم يساوره مثل هذا الشعور من قبل مع أيّ امرأة.. إنها ليست من النوع الذي يفضله عادة.

سألت هنريتا فجأة: «أين جوادك؟».

ـ ماذا؟

ارتبك لسؤالها، وأحست من جانبها أنها تحمر خجلاً عندما تلتقي عيناه اللاهيتان بعينيها. كررت سؤالها، بعد أن شعرت بأنها غبية تماماً.

ـ آه.. أجل.

كان يتفرس فيها بطريقة لم تعجبها، ولم تستطع أن تدرك سبب ذلك على الفور. وبينما كانت عيناه المشربتان بزرقة السماء تمران على وجهها، أحست بسخونة خديها. وتفحصت بضيق شعره الأسود المتناثر، عندما انتزع زر ياقته المهشم. جعلها ذلك تعي ضخامته، وتحس برجولته

الطاغية. كان الأمر بالنسبة لها خطراً محدقاً، فآثرت أن تستفيق منه. وتراجعت خطوة إلى الخلف فاستقام كتفاها.

لاحظ لغة الجسد، فخفض بصره إلى كوب الشاي، وردد بصوت هادىء:

ـ اعتقد أن إبوني في اصطبله الآن قرب المنزل. إنه ليس غبياً مثل سيده، لكنه ما زال صغيراً. ظننت أنني قادر على كبح جماحه والسيطرة عليه. كان يعدو بشكل جيد. ولكن أتعرفين؟ لقد كنا نسير على ما يرام حتى جاء ذلك الطائر الغبي، فقفز بين حوافره.

سألت هنريتا بحذر، وهي تحاول أن تخفي قلقها: «وكم مضى عليك في الخارج؟».

ـ حسن جداً.. لقد أغمي علي زمناً، وحين عدت إلى وعيي، كانت الساعة تقارب الخامسة.

وهز رأسه ببطء، فأحس بالوجع وغيّر موضعه قليلاً فوق السلم: «لقد سقطت في الخلاء ووجدت أن هذا هو أقرب مكان يمكن أن أصل إليه. كان ذلك يعني بالنسبة إليّ، الزحف الشاق لوقت طويل».

فكرت قليلاً، ثم نظرت إليه وقالت: «لا بد أن هناك أناساً قلقين عليك الآن. فإذا ما رغبت، سأتصل بهم، وأبلغهم أنك بخير».

هز رأسه موافقاً وقال: «لا بد أنهم خرجوا للبحث عني. ولكن هل اسمع سيارة الاسعاف؟».

إنه على حق، فقد سمعتها هي أيضاً وأكمل:

ـ سأطلب من إدارة المستشفى أن يقوموا بما يلزم فلا تقلقي.

ـ أوه.. لكن هذه ليست مشكلة..

قاطعها بلطف: «شكراً لك هنريتا لأنك كنت لي الملاك المعين، وسأرغب في زيارتك بعد معالجة هذه».

وأشار إلى ساقه مضيفاً: «ربما يمكن لنا أن نخرج في نزهة أو لتناول وجبة طعام؟».

ـ لا.

كان ردها حاداً جداً، واصطبغ وجهها باللون الأحمر من جديد، حاولت يائسة أن تتراجع:

ـ لا.. شكراً كثيراً لك ولكن هذا في الواقع غير ضروري. إن أي شخصٍ كان سيفعل ما فعلته أنا. وماذا فعلت أنا غير مكالمة هاتفية صغيرة؟ فلا داعي للشعور بإنك مدين لي بشيء.

ـ أنا لا أشعر بهذا.

وابتسم، لكن ابتسامته لم تصل إلى عينيه الزرقاوين المدمرتين هذه المرة.. وأكمل: «أنا فقط أرغب في أن آنس بصحبتك أمسية ما. هذا كل ما في الأمر. هل أنت مشغولة هذه الأيام؟ يمكنني أن أترك الأمر لأسبوع أو اثنين إذا رغبت؟».

لن تخضع للمناورة أو تُجبر على فعل ما لا تريده، وللمرة الثانية في حياتها، تواجه مثل هذا الوضع. ولكنها في داخلها، أحست بالألم واللوعه. فها هي مشاعرها الملتهبة تنطفىء كالمعتاد، ونبضاتها العارمة يغطيها الثلج. خرجت منها الكلمات من دون أي عناء، وقالت بصوت هادىء النبرات: «ليس الأمر كذلك. فأنا لست مشغولة إلى هذا الحد. لكنني لا أخرج أبداً.. لا سيما في الليل».

ـ هل تعنين أنك لا تخرجين مع أحدٍ أبداً؟

وكان هذا هو الواقع، فلم تكلف نفسها عناء الرد.

قال بعد قليل من التفكير:

ـ أنا آسف هنريتا نواك.. آسف جداً.

ابتسمت بإشراق: «لا تأسف».

وأمسكت أصابعها بمورفي مع توقف سيارة الإسعاف، وتصاعد صوت وقع الأقدام في الخارج، وأضافت: «أنا سعيدة للغاية لقدومك.. شكراً لك».

قال: «لا يخامرني الأسف على ما حدث لي بسبب...».

لكنه لم يكمل حديثه، إذ تعالى الطرق على الباب بشدة. ودخل اثنان من رجال الاسعاف، وأخذا يطرحان بعض الاسئلة، قبل نقل المريض إلى السيارة في الخارج.

ألقت نظرة أخيرة على الرجل الضخم. وتحت المطر المنهمر في الخارج أخذت تراقب رَجُلي الاسعاف وهما يدخلانه من باب السيارة الخلفي. كانت يده ترتفع مودِّعة بصعوبة، وابتسامته الواهنة تعلو وجهه الشاحب. إن لديه شجاعة فائقة وقدرة على الاحتمال من دون شك. وهزّت هنريتا رأسها مودّعة رجلي الاسعاف. ولم يفتها أن تلاحظ نظراتهما المتبادلة وهما يتفحصان ساق المريض. إن اصابته بالغة حقاً، ولم يخفيا استغرابهما حين روى لهما ظروف الحادث، وزحفه إلى المطحنة قصة جديرة بأن تروى.

لم تشأ هنريتا رؤيته مجدداً، ولم يكن لديها شك في ذلك أبداً. وعندما قطعت السيارة الطريق المرصوفة بالحصى، باتجاه الشارع الرئيسي الذي يبعد عنها نصف ميل تقريباً. لم تستطع التفكير بشخص لا تود رؤيته مثله. فهو يحرك مشاعرها كثيراً، وهو...

بحثت عن وصف ملائم يفسر ذعرها، لكنها لم تفلح. وهزّت كتفيها مع اختفاء الأنوار الخلفية لسيارة الإسعاف، دلالة على الاستسلام. وعادت الظلمة الحالكة تثير الرعب، والريح القوية تمزق السكون. لا شيء يهم بعد الآن، فقد تمت معالجة الحادث وانتهى الأمر.

نظرت إلى مورفي، الحارس اليقظ الواقف إلى جانبها، وربتت على رأسه الكبير، قبل أن تستقبل دفء المنزل وأنواره.

وفي اليوم التالي، وبعد الغداء مباشرة، كانت هنريتا مشغولة بغسل صحنها، وقصعة طعام مورفي في المطبخ حين تعالى صوت سيارة في الطريق الترابية. وبعد لحظات سمعت طرقاً على الباب.

ماذا الآن؟ جففت يديها بسرعة، وسارت عبر الردهة، ومورفي في أعقابها، وفتحت الباب.

ـ آنسة نواك؟

كان الشاب مشرق الوجه، طلق المحيا. ويكاد يختفي وراء باقة ورد ضخمة يحملها.

ردت هنريبتا بنبرة حيرة: «أجل.. لكن لا يمكن أن تكون هذه لي». إنه زائر الليلة السابقة.

أخذت الزهور من الفتى، الذي خبت ابتسامته لرؤية مورفي، وبعد أن شكرته، أغلقت الباب.

كان هناك ما يقارب المئة وردة حمراء قانية إضافة إلى زنابق بيضاء وصفراء وزهور عطرة وكمية ضخمة من النبات الأخضر الناعم.. لكن البطاقة المرفقة هي التي أثارت اضطراب هنريبتا.. لم يكن الكلام بخط امرأة، وأفصحت حروفه السوداء البارزة عن مكابرة واضحة: «أنا لا أقبل بالرفض جواباً... ولا زلت أود أن أصحبك إلى تلك الوجبة. وفي الوقت الحاضر، ستقوم هذه الزهور بتذكيرك بي مراراً». لم يكن هناك توقيع. وهذا ما يبرز قلة ما تعرفه عنه.. بينما يعرف هو اسمها، وأين تقيم، وكل شيء.

تمتمت هنريبتا لنفسها: لا.. إنه لا يعرف شيئاً.. بالتأكيد لا يعرف.. وحملت الزهور إلى طاولة المطبخ ثم وقفت تنظر إليها وهي على الطاولة من دون أن تحاول فكها. في الواقع، إنه لا يعرف عنها أكثر مما يعرفه أهل القرية.. ويجب ألاّ تترك مخيلتها تجمح كثيراً.. ثم إن قيامه بكتابة البطاقة بنفسه بدلاً من بائع الزهور، لا يعني شيئاً كذلك.

إنه ممتن لها وهذا كل ما في الأمر.. قررت ذلك بحزم، وهي تنظر إلى الزهور بوجل، وكأنها تخبىء سراً. وقع الشاب في ورطة كبيرة ليلة أمس، ولو لم تكن في المنزل، أو لم تسمع قرعه على الباب، لجاءت النتيجة خطيرة للغاية أو قاتلة لأن الليل بارد ورطب.

فإذا ما زارها مجدداً، حينما يقف على قدميه، أو حاول الاتصال بها... وبدأ قلبها يخفق للفكرة ـ ستقول له من دون تردد، إنها كانت تعني ما قالته ليلة أمس، إنه يضيع وقته.. وهزت رأسها بحدة، ثم

ابتسمت لمورفي، الذي أحس بقلقها وبدأ يئن بحزن.

ركعت على ركبتيها واحتضنت عنقه الضخم: «لا بأس عليك، نحن نعرف ماذا نفعل، أليس كذلك؟ والآن ما رأيك بقطعة بسكويت قبل أن نبدأ العمل مجدداً».

وفكرت في أنها ستهتم بالزهور لاحقاً، واستوت واقفة بحدة. إن أيام تجاوبها مع رجل، أي رجل، انتهت. وعلى عكس ما يظن مرسل الزهور، أو أي شخص آخر، فإنها لا تعاني من هذا الأمر. إنها تستمتع بكل دقيقة وحدها. ولن تتخلى عن استقلاليتها أبداً.

* * *

٢ ـ دعوة ملغومة

انقضى تشرين الثاني فجاء كانون الأول، بصقيعه الأبيض المتلألىء، وأخذت هنرييتا تشعل موقد الحطب في جناحها في الطابق الأول، قبل أن ترتدي ثياب العمل كل صباح. كان الجو بارداً لكنها قضت أيامها في الرسم في المشغل، وأمسياتها أمام نار الموقد، ومورفي تحت قدميها، غير عابئةٍ بالريح العاصفة في الخارج. لم تكن تلك الأيام بغيضة إلى هذا الحد. وكانت هنرييتا قانعة بها. ولكن..

قطبت هنرييتا جبينها، وجالت بأفكارها بينما كانت تحضر طبقاً مليئاً ببقايا الخبز وفتات اللحم، لتضعه في الخارج على منصة الطيور التي صنعتها خلال الصيف.

لم يبق لهنرييتا الآن سوى الزهور الجافة المعلقة في المطبخ لتذكرها بتلك الأيام الحارة.

لكن هنرييتا لم تكن تفكر بالحياة البرية حين جمدت يداها. راحت تحدق في النهر من نافذة المطبخ، وهي شاردة الذهن.

بعد باقة الورد، التي لا بد أنها كلفته ثروة صغيرة، توقّعت أن يتصل بها زائر الليل، إن هاتفياً أو شخصياً. لكن الأسابيع امتدت وطالت وها قد حل منتصف كانون الأول ولم تسمع منه أيّ خبر.

صحيح أنها لا تريد هذا، قالت ذلك في داخلها، إنها لا تريده بالطبع، فهو آخر من يخطر لها على بال.

لكنها كانت تواقة لتعرف ماذا حل به، وهل تعافى من إصابته المزعجة أم لا. ولكن حتى هذا بدا لها ضعفاً، وعنفت نفسها بشدة، وتأوهت من أعماقها بنفاد صبر.

لقد أصابت الاسابيع الأخيرة ذاكرتها بالبلادة، ولم تعد تتذكر شعورها تلك الليلة. لكن، لو بدأت تتأمل، فسيبدأ قلبها بالخفقان، ويعود إليها ذلك الإحساس بالذعر، ثم تأخذ يداها بالتعرّق. إن ذلك الرجل خطير بطريقة ما. قالت لنفسها غاضبة: «اذا ما حاولتِ اللعب بالنار، فستحرقين يديك لا محال». كان لديها، في الواقع، من الآلام ما يكفيها العمر كله.

جاءت المكالمة الهاتفية والمساء يميل إلى الظلمة، بعد عودتها من نزهة شتوية على ضفة النهر..

تركت هنرييتا مورفي فوق بطانيته في المطبخ وركضت تصعد السلم إلى الطابق الأول. لكن ما إن وصلت، حتى ترددت في رفع السماعة.. إنه هو.. وعرفت أنه هو. قد يكون المتصل أمها، أو أخاها وعائلته، أو أي شخص من بين عدد كبير من الأصدقاء. كان صوتها ضعيفاً جداً، وهو يطرق سمعها ومخيلتها بعنف، ماذا دهاها بحق السماء؟

ـ هنرييتا؟

كان هو ذاته، الصوت الرجولي الأجش الذي طاردها في أحلامها منذ خمسة أسابيع مضت. وابتلعت الهواء بصعوبة في أعماق حنجرتها قبل أن تتمكن من الرد: «نعم؟».

ـ كيف حالك؟

كان صوته عميقاً، مبهجاً، وكأنه أحس بقلقها.. وتمرد كل شيء في نفس هنرييتا على الفور: «من أنت؟».

كانت تعرف بالضبط من هو لكنها لم تشأ أن تعطيه احساساً بذلك. كانت تشعر أن غروره كبير ما فيه الكفاية.

قال بصوت منخفض: «لقد مددت لي يد العون قبل بضعة اسابيع.

ألا تذكرين؟».

وأضاف بحنان: «أم أنك تعودت أخذ المحتاجين في أحضانك دائماً؟».

كان كلامه استفزازياً واضحاً. لكنها أدركت ما يرمي إليه، وقالت بغضب، وهي تحاول كبح جماح نفسها: «أنا بالكاد أخذتك في أحضاني. لقد أجريت مكالمة هاتفية، وقدمت لك فنجان شاي، على ما أذكر».

ـ هذا صحيح تماماً.

راح يتحدث بنعومة ليتحاشى غضبها، وبنغمة يستخدمها المرء حين يتعامل مع طفل متمرد، صعب المراس.

صرت هنريتا على أسنانها، لقد بدأ الوضع يتحول إلى السخف. وأخذت نفساً عميقاً، وعدت حتى العشرة، ثم سألت بهدوء ورقة قدر ما استطاعت: «كيف تشعر الآن سيد...؟».

رد بصوت عميق يقطر سعادة: «ساقي أفضل بكثير... ولكني بحاجة إلى علاج فيزيائي، قليلاً، ولهذا أتصل بك».

ـ أنا آسفة؟

ـ لترتيب موعد وجبة الطعام التي تحدثنا عنها؟

كانت لهجته تنم عن دعوة قديمة، ثم أضاف: «وأنا لا أحب السير على عكازين..».

لا.. لا تستطيع أن تتصور أن يصل غرور الرجل إلى هذا الحد.

ـ.. لكن، بعد أسبوع سأعود لأسير على قدمي. وأنا أعلم أن الناس مشغولون عادة في أعياد الميلاد. إن أخبرتني عن أوقات فراغك، فنستطيع البدء من هنا.

ـ مواعيد؟

ونظرت إلى السماعة لحظة ثم ألزمت نفسها بالهدوء: «اسمع.. أنا آسفة.. سيد..؟».

واستمر الصمت طويلاً، حتى اضطرت أن تتابع: «لكن، أعتقد أنني

أوضحت هذا تماماً تلك الليلة منذ أسابيع.. أنا لا أقبل أيّ دعوة من غرباء».

يبدو أن الكلام المباشر، هو الوحيد القادر على اختراق تلك البشرة السميكة. لكنه اقترح بطريقة منطقية:

ـ إن خرجت معي، فلن أعود غريباً، أليس كذلك؟ وستحل المشكلة.. على أيّ حال.. لقد اهتممتِ بجروحي وقدمت لي العون. وهذا ما يجعلني صديقاً لا غريباً.

لم تعجبها طريقة قوله «اهتممت بجروحي وقدمت لي العون».

وعضت على لسانها، لئلا يرتجف صوتها، وتجاهلت ما أصاب معدتها من اضطراب، بسبب نبراته المخملية.

ـ لا.. أنا آسفة. أنت لطيف جداً.. لكنني أفضل ألاّ أقبل.

ـ ظننت أن هذا موجّه لي فقط.. لكن يبدو أنك ترفضين الجميع.. أليس كذلك؟

لم تستطع تصديق أذنيها: «أرجو عفوك؟».

ـ أنت المرأة الغامضة الغريبة الأطوار بالنسبة للقرية.. هل تعرفين هذا؟

أكمل كلامه متجاهلاً صوتها الغاضب..

ـ لم تستقبلي حتى الآن سوى امرأة واحدة طويلة ذات شعر أحمر مثلك. لقد افترض الجميع أنها أمك.

كيف يجرؤون على هذا؟ ولماذا يعمدون إلى التجسس على حياتها بهذا الشكل؟ والأسوأ من هذا كله، كيف يجرؤ هو على مصارحتها بهذا القول؟

ـ.. لكنك لم تستجيبي لأي عرض للصداقة أو شاركت في أي شيء من حياة القرية.. وهذا غير طبيعي.

صرخت كالمذعورة، من دون أن تهتم: «غير طبيعي؟».

بدا وكأنه يستمتع بالحديث: «ولمدة طويلة.. أنت امرأة شابة، كم عمرك؟ اثنان وعشرون، ثلاث وعشرون سنة؟ تعيشين لوحدك مع كلب

رعاة ضخم، تصنعين أوانيك الخزفية بنفسك وترسمين لوحاتك. ومهما كان ما تقومين به في تلك الطاحونة المنعزلة العتيقة، لا يمكنك لوم الناس لفضولهم.. أليس كذلك؟».

جن جنونها حتى أنها بالكاد استطاعت أن تخرج الكلام من فمها: «أجل.. أستطيع لومهم! أعمل في تجارة الأواني الخزفية، إذا أردت أن تعرف، وهذه التجارة توفر لي معيشتي.. إنه عمل! وأنا أبيع لوحاتي كذلك. وهذا جزء من عملي، وعيشي. وليس هواية غير مألوفة، مهما كنت تعتقد أنت وبقية الفضوليين.. وأي عمل له هذه الطبيعة، لا بد أن يتم في هدوء وأمان. وهذا يجعل الطاحونة مكاناً مثالياً لي. ولكن ذلك لا يعني أنني مضطرة لأن اشرح لك كل شيء».

ـ وأين تبيعين عملك؟ ليس في القرية.

وكان في صوته رنة عدم تصديق.. ولم تدرك هنرييتا إلا بعد وقت طويل أنها وقعت فريسة سيد في المناورة..

صاحت متوترة: «لا.. ليس في القرية.. أمي وأخي يملكان محلاً ومعرض فنون صغير في لندن، وهما يبيعان أعمالي هناك. وليس لأنهما عائلتي.. لكن لأن عملي جيد بما يكفي ليباع. إنهما أصحاب عمل وتجارة قبل كل شيء، وأخي هو وكيلي».

قال باعتدال: «هكذا إذن.. لكن، لماذا جئت إلى هيرفورد شاير وأنت تبيعين عملك في لندن؟ أوليس من المنطقي أكثر أن تستأجري مكاناً أقرب إلى تجارتك، فيتم كل شيء هناك؟».

ـ كنت أعيش في مكان قريب..

وصمتت هنرييتا فجأة، واختنقت الكلمات في حلقها، وهي تتخيل صورة الشقة الواسعة التي عاشت فيها مع ميلڤاين.

ـ اسمع.. أنا لا أريد أن أناقش هذا الأمر أكثر.

وأغمضت عينيها بقوة، وهي تحاول أن تضفي نعومة على صوتها: «ويجب أن أنهي المكالمة الآن، أنا آسفة».

وفجأة، بدا مذعناً بشكل مريب: «حسن جداً.. لكن إذا لم ترغبي في الخروج معي، فيجب أن تحاولي لقاء بعض الناس هنرييتا. ليس من المعقول أن تنطوي على نفسك كما تفعلين.. الناس هنا ليسوا سيئين إذا ما تعرفت إليهم.. أنت تجرحين بعض المشاعر.. أتعرفين ذلك؟».

جعلها كلامه تشعر وكأنها أسوأ شخص في العالم.

وجاء دفاعها عن نفسها غريزياً: «لا.. أنا لا أعرف هذا.. سمِّ لي واحداً».

ـ أنا.

وساد الصمت.

وجمدت في مكانها تنظر إلى السماعة في يدها. ولم تدر حقاً ما إذا كانت ترغب أن تنفجر بالبكاء أو ترمي سماعة الهاتف على الجدار. في النهاية لم تفعل أياً من الأمرين، وأعادت السماعة إلى مكانها بخنوع ولطف متعمدين، قبل أن تسير إلى خزانة السنديان القديمة في زاوية الغرفة.

يا لوقاحة الرجل! وأخذت ترتجف وهي تهم برفع كوب الماء إلى فمها، لترتشف منه جرعة طويلة.. كيف يجرؤ على انتقادها هكذا.. ويعدها صنفاً غريباً لمجرد ابتعادها عن الأسواق والمجاملات وحفلات الرقص الريفية التي لا تنتهي؟ هل على المرء إذا ما أقام في مثل هذا المكان أن يتقرّب من الجميع؟

اتجهت إلى الأريكة الكبيرة لتجلس فيها، قبالة الموقد المشتعل. وبعد أن وضعت فيه قطعتين من الحطب، أحست بالاسترخاء التام، فغاصت في حضن الأريكة الطرية.

لن يتخيّل أحد كم كانت يائسة في شهر شباط يوم جاءت إلى هنا. كانت حزينة مثقلة بعقدة الذنب، غير قادرة على النوم أو تناول الطعام.. كانت الأمور مختلفة قبل عامين حين تزوجت ميلڤاين في عيد ميلادها الثالث والعشرين، حيث بدا العالم كله ملك لهما..

التقت ميلفاين عن طريق شقيقها واعتبرت منحوتاته حتى وهو ما يزال في السادسة والعشرين رائعة، وكان هو نفسه رائعاً بالفعل. واعترفت هنريتا بهذا على مضض.. رائع، مجنون. بدا بعينيه السوداوين اللامعتين، وشعره الأسود الكثيف الذي يتركه طويلاً آسراً ومجنوناً. مع ذلك لا.. فهذا غير منصف له.. اعتاد أن يتصرف في كل الأمور بتهور، باستثناء حبه لها. كان حبه استحواذاً وتملكاً. حبذا لو أدركت ذلك مبكراً.. قبل أن يتزوجا.

لكنه أطاح بعقلها، والتقيا وتزوجا خلال ثلاثة أشهر.. وظنت أنها أكثر الفتيات حظاً حين سارت في الممر بين مقاعد الكنيسة. وبعد بضعة أسابيع، وجدت نفسها تعيش في جحيم.

كان يتكلم معها، ينام معها ويأكل ويشرب معها. أراد أن يكون معها في كل لحظة من يومها، ليل نهار. يسيطر على عملها، وذهنها، وأفكارها إلى أن ظنت أنها تكاد تجن. حبه كان خانقاً، ولم تجد تفسيراً لنوبات غيرته غير المعقولة إذا نظرت إلى رجل آخر، فعاشت في خوف دائم. وهكذا انقطعت عن أصدقائها، والناس الذين عرفوها من قبل. ولم تفهم ما يفعله في البداية.. ثم، بعد أن فهمت لماذا أصبحت معزولة أكثر فأكثر، انتفضت قدر استطاعتها.

ميلفاين المحب الودود الرائع تارةً، هو شخص شرير تارة أخرى.

قتل ثقتها بنفسها وبعملها، وجعلها تشعر بالخوف وعقدة الذنب، إلى أن تلاشى كل حبها له، وضاع في العذاب المستمر والارتباك. لكنها لم تفهم كل هذا، فقد كانت حيرتها هائلة والفراغ الذي دفعها إليه خانقاً، وأصبحت تعتمد عليه حتى في أنفاسها وأفكارها، فأرعبها هذا.

لكنه ظهر أمام أخيها والأصدقاء المقربين زوجاً مثالياً، محباً، مجاملاً، يهتم بكل ما تحتاج إليه.. ولقد أحبها.. بطريقته الخاصة.. وفكرت هنريتا بهذا الآن وهي تتعذب من مرارة الذكرى. كان حبه غير طبيعي، غريباً، ومشوهاً.

في الأشهر القليلة الأخيرة التي عاشا فيها معاً، تمنت أن يتركها ويرحل.. وغمرتها عقدة الذنب مجدداً. لقد قال لها إنه لن يتركها، وإنها له إلى الأبد، وإن لا شيء يمكن أن يفرق بينهما. حتى أنه ردد على مسامعها أنه يفضل أن يقتلها ويقتل نفسه على أن يتركها، وصدقته.. لكنه عندما طلب منها اجراء عملية عقم، لئلا يكون هناك طرف ثالث بينهما، صدمها. كان ما حدث بشعاً للغاية، وكل ما سمحت بحدوثه في الاشهر المنصرمة كان مؤلماً حقاً.

وسعت إلى العون. حاولت أن تجعل أمها وأخاها يفهمان، وزارت الطبيب، وبكت، لكن ميلفاين كان ماكراً، وشكّت في أن يفهمها.

ثم، حلّت تلك الليلة المخيفة التي حددت مصيرها. وكان آخر شجار بينهما.. بدأ الشجار مع عدم موافقتها على إجراء العملية الجراحية التي أصر عليها، وحين رفضت مناقشة الامر، لجأ إلى العنف. وخافت حقاً على حياتها، وهربت من الشقة، ولحق بها، وأمسك بها عند زاوية الشارع.. وتحوّل إلى الرجل الآخر، ذلك الرجل الذي ظنت أنها تزوجته.

كانا يعودان سيراً إلى البيت حين صعدت سيارة مسروقة يقودها شاب طائش تحت السن القانونية إلى الرصيف.. ورأى ميلفاين السيارة تكاد تصدمهما.. كان يمكن له أن يقفز بعيداً عن الطريق، كان يمكنه هذا.. لكنه لم يفعل.. وهذا ما يراودها في أحلامها ليلاً. بدلاً من هذا دفعها بعيداً وهو يعرف أن لا وقت أمامه لينقذ نفسه. أبعد عنها شبح الموت، وقدّم حياته فداءً لها.

«لا تفكري بهذا» قالت بصوت مرتفع وهي تقفز عن الاريكة في ذهول. لكنها لم تفكّر في شيء آخر بعد هذه الحادثة المرعبة. وكادت عقدة الذنب تقضي عليها، بعد أن عرفت أنها لو استطاعت أن تستعيده، لمتابعة حياتهما القديمة، لما فعلت.. وبدا الأمر كما لو أنها أرادته ميتاً. وأقنعت نفسها بهذا مرات ومرات.. أرادته حياً، لكن بعيداً عن حياتها، في أي

مكان آخر.

عينا مورفي المذنبتان أعلمتاها أنها تأخرت في تقديم عشائه.. ومرة أخرى امتنت لهذا الحيوان الضخم لإلهائها عن أفكارها. وأعادت التأكيد على العهد الذي قطعته لنفسها قبل أشهر، وهو أن مورفي وعملها هما كل شيء لها الآن.. وهكذا ستبقى الأمور. لا تريد أي رجل آخر في حياتها، لا الآن ولا في المستقبل ولن يجعلها الكلام المنمق العذب، تغيّر رأيها أبداً.

هزت رأسها من دون وعي، وهي تضع قصعة طعام الكلب على الأرض الحجرية، وأقسمت على ألاّ تدخل الجحيم بارادتها مرتين.

كان على هنريتا أن تعترف لنفسها بأن المكالمة هي التي جعلتها تقبل دعوة آل «فينسنت» حين وصلتها في الصباح التالي.. الطاحونة، والأراضي الريفية الخضراء الشاسعة تملكها أسرة «فينسنت»، أو بالأحرى شخص واحد من أسرة فينسنت كما فهمت. شخص ورث الأملاك من والده الراحل لكنه يعيش خارج البلاد معظم أيام السنة.

وعرفت هنريتا أن عزبة فينسنت تحتفل باعياد الميلاد كل عام، وتدعو أهل القرية.. وهذا تقليد قديم يعتزم المالك الجديد، جارد فينسنت التقيّد به، رغم ابتعاده الطوعي عن انكلترا.

قالت صاحبة المحل البدينة حينما اخبرتها هنريتا بأمر الدعوة.

- أنت تفكرين بالذهاب إذن يا عزيزتي؟ أنا وزوجي سنذهب. يمكنك المجيء معنا إذا شئت.

تأثرت هنريتا بالعرض، وردّت: «هذا لطف منك».

وأدركت وهي تفكر بما حدث في الليلة السابقة، أنها كانت جافة، ومترددة تجاه المجتمع المحلي.. وهكذا، قررت المشاركة في الحفلة بعد عشرة أيام، أيّ في الثالث والعشرين من شهر كانون الأول.

* * *

٣ ـ متخلّفة ولكن..

تنهدّت هنريتا بصوت خافت، لكن السيدة باركر سمعتها. فاستدارت نحوها، وقالت برضى: «إنه مؤثر.. أليس كذلك؟».

وكان «فورذرنغهام هال» قصراً مهيباً بالفعل.. كانت السيارة العتيقة تتحرك بوقار على الطريق الداخلية الملتوية، نحو المنزل الفخم الذي أخذ يظهر للعيان. تطلعت هنريتا من النافذة الجانبية فرأت أنواره الخافتة تبرز في ظلام الليل، وتساءلت عما إذا كان الفستان البسيط المخملي القصير الذي ترتديه أنيقاً ليتناسب مع هذه الاجواء.

وجعلها هذا تتجنب التفكير في أمر راودها طوال اليوم.. أو، منذ تلقت الدعوة، إذا شاءت الدقة.. تساءلت عما إذا سيكون «هو» بين الحضور الليلة.. كائناً من يكون، ومهما كان اسمه.

تمنت ألاّ يكون هنا.. ولكن عينيها البراقتين سخرتا من قولها هذا. ووجدت نفسها تقطب فجأة، وهي تردد الفكرة في الدقيقتين الاخيرتين قبل أن تقف السيارة في الفناء الأمامي الواسع.. إنها لا تريد أن تراه.. لا تريد.

أوصلهم إلى القاعة بواب ممتلىء الجسم، لطيف، بعد أن تفحص بطاقات الدعوة المذهبة بحذر شديد..

قالت السيدة بايكر، التي ولدت وترعرعت في القرية، والتي تعتبر نفسها واحدة من العائلة:

- إنه يجعلنا فخورين دائماً، السيد جارد... هناك طعام يكفي

لجيش. ورقص وما شابه..

ابتسمت هنريتا بتعاطف قبل أن تقول بهدوء: «هل جارد ڤينسنت هنا الليلة؟».

ـ أوه أجل عزيزتي.. ها هو هناك، عند أسفل السلم.

أوه.. يا للجحيم؟ عندما التقت نظراتها بنظراته، أسرتها العينان الزرقاوان النافذتان، اللتان أعلمتاها أنها كانت تجهل هوية جارد فنسنت قبل الآن.

توقف جارد عن الكلام إلى مجموعة صغيرة حوله، وأسند نفسه إلى درابزين السلم الخشبية المزخرفة من دون أن يُبعد عينيه عنها. أطبق ذراعيه فوق صدره القوي وهو يراقب عينيها تتسعان برعب، ثم ابتسم ببرود، والتوت شفتاه بتساؤل وهو يرفع يده في تحية مقتضبة، قبل أن يواصل اهتمامه بالمرأة الشقراء إلى جواره.

ولم تصدّق هنريتا هذا.. ووعت أن السيدة بايكر كانت تتكلم معها وأجبرت نفسها على الاصغاء، وقالت ذاهلة: «أنا آسفة».

ـ قلت.. يبدو أنكما تعرفان بعضكما.. ظننتك قلتِ إنك لم تقابلي السيد جارد أبداً؟

ـ اعتقدت أني لم أقابله.

وبسرعة رددت الظروف التي التقيا فيها، لكنها عرفت أن السيدة بايكر شكّت بالقصة.

وسألت بارتياب: «ولم تعرفي أنه السيد جارد؟».

كانت هنريتا على وشك الرد، حين تعالى صوته العميق الساخر بلطف: «السيد والسيدة بايكر.. يسرّني أن أراكما.. وأنتما تهتمان بملاكي الحاني نيابة عني؟».

ـ سيد جارد..

وارتبكت السيدة بايكر.. فقاد جارد هنريتا إلى إحدى الزوايا وتأمل وجهها من قامته المديدة.

لا بد أن طوله ستة أقدام وستة إنشات. كانت هذه أول فكرة سجلها عقل هنريتا المصدوم خلال تبادل الحديث مع الزوجين بايكر. حتى عندما كان يرتدي ثياباً موحلة ملطخة بالدم كان مذهلاً. لكنه الآن، يبدو في منتهى الجاذبية. غير أن أهم ما يميزه هو رجولته الكاملة، التي تكاد تشل حركتها الآن. لقد عرفت رجلاً آخر يمتلك مثل هذا الحضور الساحر، وكان لذلك السحر، جانبه الأسود القاتل، الذي دمر حياتها.

ـ تبدين خائفة حتى الموت، ماذا سمعت عني لتنظري إليّ هكذا؟

مثله مثل ميلڤاين، يصل إلى صلب الموضوع مباشرة، وأحست هنريتا بالعجز. فهزت رأسها متوترة، وقالت:

ـ سمعت؟ أنا لم أسمع شيئاً، وبالطبع أنا لست خائفة.

لكن هذا لم يقنعها، وبالتأكيد، لن يقنعه. وأجبرت صوتها على أن يبدو أكثر حزماً وهي تضيف: «يجب ألاّ أؤخرك عن ضيوفك الآخرين».

ـ اللعنة على ضيوفي الآخرين.

كان صوته لا يزال ناعماً. لكن ظهرت لمسة فولاذية تحت الحرير، وهذا ما جعل الشبه مع ميلڤاين أكثر قوة..

ـ لقد جئتِ إلى هنا الليلة مبتسمة مسترخية، ثم وقع نظرك علي.. وبدا عليك وكأنك في حضرة المركيز دوساد.. والآن، أريد أن أعرف السبب.. حسب علمي، نحن لم نلتق قبل تلك الليلة، منذ أسابيع.. فهل هذا صحيح؟

هزت رأسها إيجاباً.. كانت رموشه كثيفة جداً، ولونها الأسود يزيد من لمعان عينيه الزرقاوين ذات التأثير الآسر.. فلم تستطع أن تبعد نظرها عنه.. لكنها لن تقف هنا ليقوم باستجوابها.. جريمتها الوحيدة هي أنها ساعدته حين وصل إلى عتبة دارها، ثم رفضت أن تمضي قدماً إلى أبعد من هذا.. وإذا كانت أنانيته لا تقنع بأي رد، فإنه أمر سيء للغاية.

ـ اسمع سيد ڤنسنت..

قاطعها بنعومة: «جارد.. لقد مسحت جبهتي المحمومة بيديك، لذا

أعتقد أن بإمكاننا التخلي عن الرسميات، ألا ترين هذا؟».

لقد تحوّل مسح جبهة محمومة إلى علاقة من نوع حميم! إنه يتكلم بنفس الطريقة التي استخدمها في مكالمته الهاتفية، وهذا أمر جذاب بكل تأكيد.

ـ إذا لم يكن ثمة ما سمعته عني، فهل أفهم أنني لم أعجبك؟ هل هذا هو الأمر؟

كيف يمكن لها أن ترد على كلام كهذا؟

نظرت هنريتا إليه برعب. يبدو أنه لا يهتم كثيراً للتفاهات التي تستخدم بشكل مهذب.. لكن لا يمكنها أن تكشف له لماذا لا تريد أيّ علاقة بالرجال، بشكل عام.. وبه بشكل خاص.

قررت أن تختبىء وراء السخرية:

ـ وهل تنقصك محبة النساء فتقلق لو اكتشفت أنك لم تعجبني؟

كانت لهجتها ساخرة وعيناها معبرتين، وهي تنظر إلى الشقراء المشوقة القوام التي كان يتحدث إليها حين دخلت المنزل.

تابع نظراتها، ثم تحوّل اليها من جديد وزرقة عينيه حادة بشكل لا يقبل التأويل.

ـ ملاحظة صائبة.. يا جميلتي البنية العينين. لكنني تجاوزت مثل هذه المسألة الصعبة من قبل.. إذن لا نية لك أن تتعرضي للإغراء.

تابعت هنريتا النظر إليه، لكنها لم تقل شيئاً.. على أيّ حال ليس لديها ما تقوله.

ابتسم فجأة، فارتبكت قليلاً، ورمشت عيناها لابتسامته الرجولية الصارمة.

ـ حسن جداً.. ما من مشكلة، أنت هنا الليلة، وسأتأكد شخصياً من أنك تستمتعين بوقتك وهذا أقل ما أفعله.. أنهي هذا..

وأشار إلى كأس عصير المرطبات في يدها: «.. وستدور قليلاً، هناك أشخاص يجب أن نلتقي بهم قبل بدء الرقص».

ـ أنا.. لن أبقى طويلاً.

كان قرارها وليد اللحظة.. لكنها في قرارة نفسها أحست أن هذا الرجل.. هذا الرجل المصمم، القوي الممتلىء حيوية ورجولة، هو صاحب الملك.. وليس هذا فقط، لكنه ثري وذو سلطة لا يمكن إنكارها.

لقد أوقع بها خلال تلك المكالمة الهاتفية، ودفعها للاندماج في المجتمع وعقد الصداقات، كوسيلة للوصول إلى غايته.. لقد عرف أنها ستتلقى دعوته في اليوم التالي، وعلى الأرجح سترفضها.. لهذا راح يغذي إحساسها بالذنب لتقبل.

قال جارد بنعومة: «الزوجان بايكر يبقيان دائماً حتى النهاية.. ولقد جئت معهما.. ألم تفعلي؟».

ردّت بسرعة: «هذا لا يعني أنني مضطرة للعودة معهما.. أنا أنوي أن أستقل سيارة أجرة..».

وتلاشى صوتها أمام نظرة الشك الصريحة على وجهه وقال بتجهم: «هنريتا نواك.. أنت تخبين أملي.. لقد آمنت بكِ كشيء نادر في عالمنا هذا.. أنثى صادقة وشريفة».

أحمر وجهها لكذبها، وازداد احمراراً عندما سمعته ينطق بعبارته هذه.. وكانت مستعدة للتخلي عن العالم لتتمكن من الرد رداً فظاً.. لكنها عضت على لسانها ونطقت بصوت خفيض متوسلة: «وهل فعلت هذا حقاً؟».

تمتم: «ولن أستطيع الاستمرار في مناداتك هنريتا.. إنه اسم طويل، لا بد أن لك اسماً مختصراً يستخدمه أصدقاؤك؟».

ردت باختصار: «هِنْ».

ـ هِنْ!

واضح أن الاسم لم يعجبه، فسأل غير مصدق: «وتدعين الناس ينادونك «هن»؟».

واستقرت عيناه على الوجه الجميل أمامه، الذي تحيط به غمامة من الشعر الكستنائي الحريري، والذي ينسدل في موجات ناعمة حتى منتصف الظهر.

وجدت هنريتا أنها تستمتع بوقتها تماماً الآن، فالذهول الواضح على وجهه أرضاها: «أجل..».

ـ هكذا إذن.

وقطب قبل أن يمسك ذراعها، لمسته تحرق بشرتها العارية.

ـ فليكن الاسم هنريتا إذن.. إلى أن أستطيع التفكير بشيء مُرْضٍ أكثر لنا معاً.

أوه.. لا.. لا.. لا.. لن يكون هناك «شيء مرضٍ أكثر لنا».. وفكرت بهذا بكل تصميم وهي تسمح له أن يقودها إلى مجموعة صغيرة في الطرف الأبعد من القاعة. هذه الأمسية ستكون فريدة من نوعها.. ولن تتكرر مرة أخرى.. وعلى الأرجح ستكره كل دقيقة منها.. فهي لم تحب يوماً رجالاً عدوانيين، مغرورين، وسبب اهتمام جارد قنسنت الوحيد بها، هو أنها لم تعطه اهتماماً كافياً. وهذا واضح تماماً، وبعد أن عرفت من هو، ازداد وضوحاً. إنه معتاد على وقوف النساء في الصف أمامه، من دون شك.. بسبب مظهره الوسيم ومركزه.. وهو غير مضطر إلى التوسل لموعد من أي كان. لقد أثارت شهيته برفضها لتحرشاته.. وهذا كل ما في الأمر.. إنها بعيدة عن طبقته بكل ما للكلمة من معنى.

ـ ابتسمي.

ـ ماذا؟

كان صوته العميق ناعماً جداً في أذنها.

للحظة ظنّت أنها أساءت السمع وهما يقتربان من الآخرين.

ـ قلت ابتسمي.. هذا العبوس على وجهك لن يضمن لك كسب الأصدقاء أو ذوي النفوذ.

لن تستطع أن تبعد نفسها عن ذراعه التي تحتضن كتفيها، إلاّ إذا

افتعلت فضيحة.. لكنه قريب جداً منها، قريب كثيراً، وأجبرت نفسها على تجاهل رائحته المسكرة، والإحساس بذراعيه المفتولتي العضلات حول خصرها.. لكنها عرفت أنها اضطربت وأن وجهها بدا صارماً وهي تقول: «هل تسمح أن تتركني سيد قنسنت؟».

ولم يتظاهر حتى أنه سيذعن: «لا.. لن أفعل، ليس قبل أن تناديني جارد».

إنه رجل خطير ولكنه جذاب. ومرة أخرى، غمرها برجوليته المتفجرة فتسبب لها بانقباض مؤلم في معدتها، جعلها تشمئز من نفسها. حاولت أن تستجمع قوتها، وبدت صارمة جازمة وهي تقول: «ضيوفك الآخرون ينظرون إلينا».

يبدو أنه يتمتع بانزعاجها: «لن أهتم أبداً، دعيهم ينظرون».

ـ سأتسبب بجدال لا داعي له..

ـ لا.. لن يحدث هذا.. أنت سيدة محترمة، ولن تجعلي نفسك عرضة للأنظار.

ردت بغضب: «لكنك لست سيداً مهذباً».

ابتسم.. ابتسامة قاتمة مثيرة، تلاعبت بأعصابها بشكل لا يصدق.

قال: «ذكاء منك أن تخمّني هذا.. والآن، هل ستتعاونين؟».

كان هذا تقرير أمر واقع.. وكان مخيفاً بما يكفي من دون أن يضطر لأن يدنيها كثيراً من جسمه القوي الكبير. على أيّ حال، إن كسب المعركة لا يعني بالضرورة كسب الحرب.

ـ هلاّ تركتني.. جارد؟

كان طعم اسمه غريباً على لسانها.. وأكملت تسأل بحدة، ولو مفروضة: «هل هذا حسن؟».

تمتم: «بما أننا محاطان بمئة زوج من العيون ما انفكت تلاحقنا، فإن المسألة فيها نظر».

ـ حسن جداً؟

كانت لا تزال بين ذراعيه، وخرج صوتها مشاكساً بكل تأكيد.. لكن جارد يحاول جهده ليجعلها تلاحظه.. تلاحظه فعلاً.. لكنه الآن أصبح ينحرف ليصبح شخصاً مختلفاً. وكأنه مراهق في موعده الأول.. أمر سخيف.. العينان الزرقاوان ضاقتا كثيراً. بدا منزعجاً لأنه لم يسمح لأنثى بالسيطرة عليه منذ... اوه.. لا يستطيع الآن أن يتذكر منذ متى.

ـ سامحيني.. أيتها السيدة الفاضلة.

كان يسخر من نفسه أكثر من سخريته منها. لكن هنريتا لم تدرك هذا.. أدركت فقط أنه تركها فجأة، وتغير وجهه، وللحظة أحست أنها يائسة ووحيدة بشكل رهيب. لكن، في اللحظة التالية، راح يقدّمها إلى وجه جديد بعد الآخر، وكلها وجوه فاتنة ومسرورة جداً لملاقاتها.. لكن، يجب أن يكونوا مسرورين لأنها تتعلق بذراع جارد فُنسنت؟ واضح أن مركزه محترم في هذا المجتمع الريفي، بالرغم من أنه يعيش في الخارج معظم وقته.

هذه الفكرة، دفعتها للقول: «علمتُ أنك تعيش خارج انكلترا معظم أيام السنة، فهل لديك منازل أخرى في الخارج؟».

ـ في فرنسا وأميركا.

كان يستند إلى الجدار، يتأملها بكسل.. وأحست أن وقفته هذه طبيعية، وتناسبه وكأنه إحدى القطط الكبيرة. بدا هادئاً، ذا رجولة طاغية، خطيرة، ولكنها مستترة.

رد عليها: «أعمالي تبقيني معظم الوقت خارج البلاد. كان جدي عبقرياً، في عصره وفي نشأته. وكان يعتقد أنه لا يكفي أن يكون فرداً من الأرستقراطية البريطانية، لهذا استخدم قسماً من ثروة أسرة فُنسنت ليستثمر ويضارب في فرنسا وأميركا. كان عجوزاً خبيثاً.

قالت بذكاء: «ولقد أحببته».

ـ كثيراً.

ابتسم لها، فتجعّدت زوايا عينيه الزرقاوين: «كان كأحد ابطال

الروايات الغريبة.. وحيداً يعيش بحسب قيمه ومبادئه.. ولم يعرف معنى كلمة «تنازل»».

ـ وأنت؟

لم يرد، فأكملت ضاغطة: «هل تعرف معنى كلمة «تنازل» أم أنك تتبع خطى جدك؟».

تابع النظر إليها للحظات طويلة، عيناه تطوفان بها ويذقنها المرفوع وعينيها الكئيبتين، ثم قال بصوت ناعم جداً: «لِمَ كل هذه العدوانية هنريتا؟ من الذي جرحك بمثل هذا السوء؟».

ـ ماذا؟

وجفلت بحيث تراجعت إلى الوراء قبل أن تستعيد رباطة جأشها وترسم ابتسامة على فمها، ثم تقول: «أنا لا أعرف عما تتكلم».

ـ كلمة «تنازل» لامست وتراً حساساً.. أليس كذلك؟

وبثقة مطلقة، استقام وحرك جسمه الرشيق ليقترب منها.. وحين لم ترد، ونظرت إليه بفم مشدود، أضاف: «ما كان اسمه؟».

وكرهت بمرارة الشعور الذي تملكها.. وكأنها حيوان مرتبك لا يجد مخبأ له.. وظهر غضبها في صوتها:

ـ إن.. إن عشت علاقة صعبة كما تقول، فهذا شأني وحدي.

رد بهدوء: «وتنوين البقاء على حالك».

هذا جنون! لقد التقت بهذا الرجل مرتين في حياتها كلها، ويتوقع منها أن تروي له تاريخ حياتها؟ وبدا صوتها مستوياً حين صرخت بأفكارها: «أنا لا أعرفك.. لذا، لماذا بحق السماء أقول لك أي شيء حميم؟».

كانت الكلمة في غير محلها، وأحست بذلك على الفور. وترافق مع إحساسها بهفوتها، لمعان مفاجىء في عينيه.

ـ حميم..

وترك الكلمة عالقة على لسانه بما يكفي ليحمرّ وجهها حمرة

شديدة.. وأكمل: «لم أكن أعرف أنني أسأل عن موضوع له طبيعة حميمة؟».

وأذهله احمرارها الذي بدا قديم الطراز في أيامنا وعصرنا الحديث..

- أردت فقط أن أعرف ما إذا كان هناك مواضيع محددة، يجب أن أتجنبها.

ردّت بحدة، غاضبة منه ومن نفسها: «لا.. ليس هناك شيء».

أي موضوع سيكون خطيراً معه.

- جيد.

كان صوته ناعماً، أما عيناه فضيقتين. وتقدم فأمسك بذراعها وقال: «دعينا نشرب كأساً من العصير قبل بدء الرقص. لا شك أنك ستغرقين في الطلبات.. وبما أنني لست على استعداد لذلك بعد، سأضطر لأن أجلس وأراقب».

لاحظت أنه ما زال يعرج قليلاً، وأحست بالتقصير لأنها غفلت عن سؤاله عن حال ساقه.. وبّخت نفسها بتعاسة، فقد كانت لتفعل ذلك مع أي شخص آخر.. لكن وبطريقة ما، دمرت القوى المغناطيسية في شخصية جارد ڤنسنت، كل شيء.. وأخذت نفساً عميقاً، ثم قالت بهدوء: «أنا آسفة.. كان عليّ أن أسألك كيف حالك الآن».

- لا.. ما كان عليك أن تفعلي.

وابتسم لها ابتسامة مثيرة، قبل أن يضيف:

- أريدك أن تريني رجلاً قوياً، وليس ضعيفاً لا يستطيع إبقاء مؤخرته فوق حصان.

احتجت بسرعة، من دون أن يعجبها ما أحست به جراء كلماته: «أي شخص يمكن أن يتعرض لمثل هذا».

- بالنسبة لي لا. لكن هناك دائماً مرة أولى، وكانت هذه المرة لي.. وساقي بخير، حقاً. تتحسن كل يوم.

احمرت هنريبتا ثانية، صحيح أنها لم تعرف السبب، لكنه أغضبها:

- جيد، يسرّني ذلك.

نظر إليها بعينين زرقاوين، من تحت جفنين شبه مغمضين، وقادها عبر باب مفتوح إلى قاعة رقص جميلة.

- أتمنى أنّ أصدق ما تفوهت به. لكنني أعتقد أنك تتصنعين التهذيب، هنريبتا نواك. مع ذلك، للصبر عواقبه الجيدة.

فتحت هنريبتا فمها لترد بحدة، ثم أقفلته وهي تتطلع إلى الوجه الأسمر القاسي. إنه ماكر إلى حد بعيد، ولن تربح أي حرب كلامية مع هذا الرجل العدواني الجذاب... إذن، من الحكمة ألاّ تحاول مجدداً.

ما إن جلست على أحد المقاعد المخملية المستقيمة الظهر، التي تحيط بقاعة الرقص، حتى سارع الساقي بلباسه الرسمي إليهما، مع صينية من كؤوس الشراب.. شكره جارد، وأخذ كأسين، ومرر أحداهما لهنريبتا مع نظرة خارقة أخرى وهو يقول: «هل تحبين الرقص هنريبتا؟».

هزت كتفيها بحذر: «أحياناً».

في أحد الأيام، وقبل ميلقاين، كانت تعشق الرقص، والحفلات، وكل شيء له علاقة بالمرح والضحك.. لكن، بعد أسابيع من زواجها، أصبحت هذه الأماكن حقول ألغام، فمجرد نظرة، أو ابتسامة لأي فرد من الجنس الآخر، تثير لديه مشاعر غضب ملتهبة. ومنذ موت ميلقاين، قبل ما يقرب الثلاثة عشر شهراً، وبعد زواج دام سنة، أحست أنها لا تريد أن تبتسم أو ترقص أو أن تكون مرحة مرة أخرى.

التفكير بهذا يجعلها حزينة. فقد انتزع زوجها منها ذلك الجزء.. الجزء الواثق، المنطلق اللامبالي، وأخذه معه إلى القبر. لكن ما إن اتخذت الطاحونة مسكناً لها، وبدأت تسيطر على حياتها مجدداً حتى لم يعد هذا يزعجها كثيراً. سعادتها المتزايدة في عملها، وحب مورفي العميق، وتعلقه بها جعلها تستعيد شيئاً من توازنها، في هذا المحيط المعزول.

جلس جارد إلى جانبها، وعيناه مركزتان عليها وهو يقول: «أحياناً فقط؟ ظننتك راقصة موهوبة. لديك الرشاقة، الأناقة والاتزان، وكل ما

يحتاجه الرقص».

تطلعت هنرييتا إليه بارتياب. كان جزءاً من تخطيط ميلفاين للسيطرة عليها، أن يقول لها إنها خرقاء وحمقاء. وبعد فترة من الزمن بدأت تصدق هذا بالرغم منها، ومنذ زواجها أحست بصعوبة في تقبل أي مديح. هذا الإرث، بالإضافة إلى الإحساس بالذنب والألم وضعف الثقة بالنفس أمور تضطر إلى محاربتها في كل يوم من أيام حياتها. كان صوتها جافاً عندما اجابته: «شكراً لك، لكنني لا أعتقد أنني رشيقة».

ـ آه.. لكننا لا نرى أنفسنا كما يرانا الآخرون هنرييتا، بعض الناس يمتلكون نوعاً من الثقة بالنفس تجعلهم شجعاناً ومطمئنين أحياناً وأنانيين مستبدين أحياناً أخرى. وآخرون غير آمنين وضعفاء بشكل مؤلم مهما كانت ميزاتهم الطبيعية. وهذا كله يعود إلى ظروف حياتهم التي تشكل شخصياتهم، وتركيباتهم الجينية بالطبع.

لم تعجبها طريقة سير حديثهما.. كان عميقاً جداً ومتطفلاً بشكل واضح، فجارد حاد الملاحظة إلى حد بعيد.

كان قد لاحظ تحفظها، وتوتر لغة جسمها وهي تمسك كأس العصير بقوة ابيضت معها عقد أصابعها.. وقال بصوت رقيق هادىء: «أنت لا توافقين؟».

هزت كتفيها بحدة: «أعتقد هذا، أنا لم أفكر بالأمر».

ربما.. وربما لا. أمر واحد مؤكد.. ما تراه هو بكل تأكيد ليس ما ستناله من هنرييتا نواك. وفكر جارد.. ها هو، عالق في زاوية وكأنه شحاذ مسكين في وليمة.. وما من شك أن نصف الرجال هنا سيرغبون في الرقص معها، والنصف الآخر لن يمنعهم من هذا سوى غضب الزوجات الغيورات.. إنها تبدو جميلة الليلة. لكنَّ هناك أكثر من مجرد جمالها.. شيء مراوغ، وسيجذب هذا الرجال كالمغناطيس.

وكان على حق.. فقد جذبهم هذا. ما إن بدأ الرقص، حتى تدفّق الكل على هنرييتا.. وكائناً من كانت معه في قاعة الرقص المتسعة، وأينما

ذهبت، كانت تلاحظ تلك الهالة في جانب من جوانب القاعة.. ولاحظت، بشيء من الألم في قلبها، أن هناك على الدوام سيل من النساء حوله، يضحكن، ويتحدثن أو ينظرن بإعجاب إلى وجهه.

أكدت لنفسها أنه ليس إلاّ عابثاً مغازلاً، وأحست بالمرارة وهي تنظر من فوق كتف شريكها الرقص، لترى أن الشقراء الممشوقة القوام التي كان يكلمها حين رأته أول مرة، قبلته على خده بحرارة قبل أن تقف إلى جواره.. لا شك أنه عابث، وهو بكل تأكيد لديه الثروة، ووسائل الاتصال اللازمة لينغمس في ما تهواه نفسه.

لكن ما يفعله ليس من شأنها.. إنه حرّ التصرف، في كل ما يقول ويفعل وليس لأحد أن يسأله عنه.

وجدت أنها تعبس بينما شريكها في الرقص يدور بها في الحلبة، وأجبرت نفسها على الالتفات بسرعة فلاحظت نظرته المندهشة.. ووبخت نفسها بحدة.. تماسكي.. على الأقل تصرفي وكأنك تقضين وقتاً مرحاً.

ـ هنرييتا؟

ـ ماذا؟

التفتت نحو السائل، وهو رجل متوسط العمر، فأدركت أنه كلمها وهي شاردة الذهن.

واعتذرت بسرعة: «أنا آسفة.. لم أسمع ما قلته».

كرر رونالد غلينفيلد، مدير أملاك جارد، بصبر:

ـ سألتك ما إذا كنت تشعرين بالخوف في الطاحونة.

ردّت على الفور: «أوه لا.. ليس بوجود مورفي».

فقال بابتسامة جافة: «ذلك الكلب المتوحش لقد أخبرني جارد عن كلبك الألماني».

ـ هل هكذا يسمي مورفي؟

وأدرك رونالد متأخراً جداً، أن هنرييتا جرحت بعمق.. وأكملت بثبات: «مورفي كلب لطيف مثل الحمل، ولا يؤذي ذبابة إلا للدفاع عني.

يجب أن تراه مع أولاد أخي، إنهم يحبونه كثيراً ولا يحق لجارد أن يدعوه بالمتوحش.. لقد كان لطيفاً تلك الليلة حين ظهر جارد على باب داري».

وفجأة، طرق مسامعها صوت عميق غامض من ورائها، لا يمكن أن يكون سوى لشخصٍ واحد: «سأسرق منك هنريتا لبضع دقائق أتسمح بذلك؟».

واستدارت هنريتا لتراه وراءها. وتبع هذا اعتذار مهذب قبل أن تتفوه بأيّ كلمة.

ـ وأنا أحب كلبك، أحبه حقاً. في الواقع، بالنسبة للأخلاق الحميدة واللباقة، مورفي أمير في دنيا الكلاب.

حاولت هنريتا، جاهدة، أن تظهر غضبها.. لكن شيئاً ما في العينين الزرقاوين المبتسمتين جعلها تضحك.

أضاف جارد بصوت منخفض: «وأنا مسرور جداً لذيوع خبر وجود مورفي معك في تلك الطاحونة المنعزلة.. لكن وكحرص إضافي سأثبت لك جهاز إنذار بعد الميلاد».

ـ ماذا؟

ما كان بالإمكان أن تجفل هنريتا أكثر.

ـ سيكون الجهاز متصلاً بمركز الشرطة المحلي. مع أنّ الأنوار المشعة وبعض الأصوات كافية لإخافة وإبعاد مستغلي الفرص من الجوالين، الذين قد ينظرون إلى الطاحونة كمكان جيد لقضاء ليلهم.. وما إن يلمح أحدهم أنياب مورفي..

احتجت بحدة، وبصوت مرتفع: «جهاز الإنذار غير ضروري.. أنا هناك منذ شهر شباط.. وكنت على ما يرام تماماً. في الواقع، أنت الزائر الوحيد الذي وصل إلى هناك بدون إنذار مسبق».

قال جارد بجدية: «مع ذلك، هذا ما كنت أفكر به منذ مدة. لقد صرفت مبلغاً كبيراً على هذه الطاحونة القديمة، واعتبرتها حماية لاستثماري.. والوقاية خير من العلاج.. وغالباً ما يكون العلاج

قاسياً».

فكرت هنريتا بالأمر، ورأسها يميل إلى جانب واحد.

ـ أعتقد هذا.

أملاك «ڤرايرميل» جميلة ومتجددة، وتستطيع فهم رغبة جارد في حمايتها من المتشردين الجوالين، ومورفي أكثر من رادع كافٍ في الأوقات العادية.. لكن، قد يبتعدا عن الطاحونة لبضعة أيام كما أنّ لديها فعلاً معرضاً لأعمالها في شهر نيسان.. وتتوقع منها أمها أن تحضر إلى لندن في ذلك التاريخ.. قالت بعد لحظات:

ـ أجل، أفهم رغبتك في حماية ممتلكاتك.. وأعتقد أنني سأفعل الشيء عينه لو كانت الطاحونة لي.

ـ حسم الأمر إذن.

ولأن الفكرة خطرت بباله وهو يراقبها تطوف بخفة في القاعة مع شركاء مفتونين، فقد أحس جارد بالارتياح الشديد لموافقتها.

ـ والآن، تعالي لنأكل شيئاً.

وجرّها بنعومة نحو باب مفتوح مضيفاً: «سترقصين فيما بعد».

لكنها لا تريد أن ترقص وتفضل أن تبقى معه. أرعبتها هذه المعلومة المفاجئة، وتسببت بتعثر خطواتها فكادت تقع وهما يغادران قاعة الرقص.

وكانت يد على مرفقها: «احذري».

وشدّها إلى جانبه بشكل متعجرف، ثم قال بخفة: «أنا من يعرج.. ألا تذكرين؟».

حاولت الرد على ابتسامته الباعثة على الارتياح، لكن هذا فاق قدرتها.. إنه أمر خطير.. وهو خطير أيضاً.. وهي تعرف هذا.. فماذا تفعل؟ سألت نفسها بشكل محموم. هل هي إحدى النساء المنجذبات إلى الرجل غير المناسب مرة أخرى بالرغم من كل إشارات التحذير؟

قبل ميلڤاين، حين كانت شابة واثقة من نفسها، كانت تختار من سذاجة النساء في الحب. فهي لن تسمح لأي رجل أن يستبد بها، فالعلاقة

يجب أن تبنى على أسس متكافئة لتعيش.

لكن الأمر ليس بسيطاً هكذا، وهي تدرك ذلك من دون ريب. فلم يتبق من فتاة الأمس الجريئة سوى ذكرى صغيرة.

كانت المائدة مذهلة. وبدأ الجميع بتناول الطعام بشره وكأن الغد لا وجود له. وبينما راح جارد يرافقها من صنف لآخر، وجدت هنرييتا نفسها بلا شهية تماماً، وربما ما كان عليها أن تأتي. قالت ذلك في سرها عندما أخذ الناس يفسحون الطريق لهما، وبدا جارد كأنه ملك وهي رعيته.. هذا جنون.. جنون.

وتناهى إليها صوت جارد بلطف: «لم تأخذي ما يكفي لإطعام عصفور.. دعيني أحضر لك المزيد».

قالت بامتنان: «لا.. لا.. لا بأس. لست جائعة الليلة».

وتقلصت معدتها. كان ميلثاين لطيفاً في البداية.. لطيفاً جداً. في الواقع كان هذا الشيء الوحيد الذي يصعب فهمه، فلو أساء التصرف معها طوال الوقت لعرفت كيف تواجهه، ولعله بقي حياً.. لكن حياته كانت قصيرة ومؤلمة. في السابعة والعشرين من عمره، فقد العالم نحاتاً لامعاً.

ـ اسمعي، ما من أمر سيء إلى هذا الحد.

وخرجت هنرييتا من الفراغ الأسود الذي انجرّت إليه أفكارها، لتجد جارد يطيل النظر إليها وأكرهت نفسها على الابتسام.

ـ أنا آسفة.

صلت كي يصرف نظره عن الموضوع، لكن ذلك لم يحدث.

قادها إلى زاوية هادئة من قاعة الطعام الكبيرة، وأخذ منها طبقها ووضعه على أحد المقاعد، قبل أن يستقيم ليواجهها.

ـ ما الأمر هنرييتا؟

ثم أضاف بنعومة وهي تفتح فمها لترد: «ولا تقولي لي «لا شيء».. لأنني لن أصدق، هل تواجهين متاعب من أي نوع؟».

قالت بثبات: «لا جارد.. أنا لا أواجه أيّ متاعب».

لكنها أطرقت رأسها، فرفع ذقنها بلطف، وذكّرها بأن لا فائدة من المراوغة.. وقالت لنفسها: لا يحق له استجوابي هكذا.. لكنها كانت تعرف أن جارد ڤنسنت هو بحد ذاته قانون.. حسن جداً.. ستقول له القليل، وربما سيقنعه هذا بأن أي اهتمام بها لا طائل وراءه!

إنه رجل منغمس، في العبث، وهذا واضح تماماً. وإذا كان عدد النساء الملتفات حوله هذه الليلة يشكل دليلاً ملموساً، فلن يضطر إلى التفتيش بعيداً عن العلاقة الغرامية التالية.

ـ كنت فقط أفكر...

وصمتت.. ثم أجبرت نفسها على المتابعة، رغم صعوبة ذلك. فهذه أول مرة تذكر فيها ميلثاين أمام أحد، ما عدا العائلة والأصدقاء المقربين، منذ وفاته.. وتابعت بهدوء: «أفكر بزوجي».

ـ تفكرين بماذا؟

ولم يبدُ الصوت صوت جارد أبداً.

لم تشأ أن يبدو كلامها متصلباً هكذا. لكن حين نظرت إلى وجهه غير المصدق، رأت أنه أساء فهم كلامها.. وللحظة أحست بإغراء أن تتركه يظن أن زوجها حيّ. لكنها لم تستطع، وهكذا أضافت: «زوجي الراحل».

ورأت الفهم ينعكس في عينيه المرتاعتين.

وسألها من دون ثبات: «أنت أرملة؟ في مثل سنك؟».

لو كان الموقف مختلفاً، لضحكت من ذهوله الكامل.. وشكت هنرييتا في أن يكون هناك ما يدهش جارد ڤنسنت.. لكن، والأمر على ما هو عليه، كانت التسلية بعيدة عن تفكيرها وهي تقول بصوت منخفض: «أجل.. أنا أرملة.. زوجي.. مات منذ أكثر من سنة، وكنا متزوجين لثلاثة عشر شهراً».

ـ أعتقد أنني بحاجة لأن أجلس.

وشدها إلى جانبه، وساد صمت مطبق للحظات قبل أن يكمل: «ماذا جرى؟ حادثة من نوع ما؟ لا بد أنه كان صغيراً..».

ـ كان في السابعة والعشرين.

وصمتت، ثم ركزت نظرتها على رسم محدد في السجادة الفارسية تحت أقدامهما.

ـ أجل.. لقد قتل ميلڤاين في حادثة سيارة غير عادية. كنا.. كنا نسير على الرصيف حين فقد صبي أرعن في الخامسة عشر من عمره السيطرة على سيارة مسروقة.. ودفعني ميلڤاين بعيداً عن طريقها، لكن لم يتسنَ له الوقت لإنقاذ نفسه.

صمتت قليلاً ثم أنهت بصراحة: «لقد قتل على الفور».

أحست بيده تلامس خدها بلطف: «هنريتا.. أنا لا أعرف ماذا أقول».

لكنها لم ترفع عينيها إليه، وبعد لحظة زالت لمسته، وأضاف:

ـ لم يكن لدي فكرة.. لقد سجلت اسمك الآنسة نواك.

ـ أنا.. استعدت اسم عائلتي بعد الجنازة.

شعرت بالارتياح والاضطراب لرعبه الحقيقي وإشفاقه.. لكنها بدأت هذا ولا مجال للتراجع.

ـ وأنا أفضل رفقة نفسي.. مع مورفي.

ـ أجل.. أفهم هذا.

ساد صمت آخر، لمدة أطول هذه المرة، ثم قال: «لا بد أنك أحببته كثيراً هنريتا.. وأنا آسف لأنني أجبرتك على الحديث عن هذا، في حين ما زال الأمر صعباً عليك».

ـ لا.. لا بأس في هذا.

قالت ذلك، وهي تشعر أن كومة من الفحم المشتعل تطبق على رأسها، في حين احترق خداها بالحرارة المنبعثة من داخلها.

رد بهدوء: «لا.. ليس لا بأس به، فأنا نادراً ما أفرض الأشياء على

الناس. ولقد تعلمت بطريقة صعبة حين كنت أصغر سناً، أن هذا أمر خطير.. لكنني فعلت هذا معك، وأنا أعتذر».

افترض جارد أنها لا تزال تحب ميلڤاين.. وهذا بالضبط ما أرادت أن يصدقه منذ دقائق. أما الآن.. فلم تعد واثقة.. فجأة بدا لها أن هذا أمر خاطىء، وخادع، لكنها لا تستطيع أن تشرحه. لا تستطيع، فهي نفسها لا تفهمه، حتى أنها لا تفهم ما تشعر به.. فكيف يمكنها أن تفرغ حملها أمام شخص آخر!

رفعت إليه وجهاً شاحباً من دون تعبير، فأحست أنها ترى رجلاً مختلفاً عن ذلك العابث المثير الخبيث الساخر، الذي اعتادت رؤيته. ولم ينجدها ما رأت.. لم ينجدها أبداً. رأت تحفظاً في عينيه.. تراجعاً.. ومع أن الأمر سخيف، إلاّ أنها أحست بذوبان في عظام جسمها عندما كان وجهه الدافىء الجذاب يتطلع إليها بحنان.

وبمضي الوقت لم تشعر بالتحسّن، ورقصت حين طُلب منها ذلك.. وابتسمت، وتبادلت الحديث. لكنها لم تستطع أن تتخلص من الشعور بالندم منذ كشفت أسرارها.. الآن سيتركها وشأنها، وهذا ما أرادته.. أليس كذلك؟ وأقنعت نفسها بهذا عندما أعادها شريك آخر إلى جارد مع إطراء لطيف.

راح يتحدث إليها، في الدقائق القليلة التي سبقت قدوم شريك رقص جديد. كان لديها إحساس أنها تحوّلت إلى العمة العانس، وبطريقة سخيفة أثار هذا الأمر سخطها بشكل لا يصدق.

كان الوقت متأخراً، وبدأ أول الضيوف بالمغادرة، حين انحنى جارد إليها ليقول: «هل ستعودين إلى لندن في عيد الميلاد؟ أعتقد أن عائلتك تحب أن تراك؟».

ـ فكرت بهذا.

وصمتت، تنوي أن تشرح له أن شقة أمها الجميلة، بسجادها العاجي اللون وأثاثها الليموني الشاحب، ليست مناسبة للميلاد بوجود مورفي..

لكن قبل أن تتابع، قاطعها جارد: «لكن هذا سيثير الكثير من الذكريات؟».

لا.. أنت لا تفهم. ونظرت هنرييتا إليه، ومزيج من الإحباط والتوتر يعتم عينيها.. لماذا يجب أن يكون لطيفاً هكذا؟

قالت بسرعة: «لا.. ليس الأمر هكذا. أنا ومورفي سنكون أكثر ارتياحاً في الطاحونة.. إنه كلب ضخم وأمي لا تحب الحيوانات».

ـ هكذا إذن.

وكان من الواضح أنه لم يصدقها، وأصبح وجهه النحيل الأسمر حزيناً.. وقال بصوت رسمي: «إذن، ربما تشرفيني بتناول العشاء معي في «فورذرينغهام» يوم الميلاد؟».

يا إلهي.. إنه يتكلم وكأنه كبر بضعة أجيال.. وقالت: «شكراً لك.. لكننا سنكون بخير».

هذه شفقة يمكن أن تستغني عنها.

ـ لقد وعدت مورفي بنزهة طويلة لطيفة، ثم بعشاء متأخر من لحم ديك الحبش والبطاطس المشوية على النار.

ـ يبدو هذا رائعاً.

فجأة عاد شيء من جارد القديم وهو يبتسم ويضيف: «لولا علمي أننا سنغرق بالأقارب من كل أنحاء العالم، لاحتلت عليك للحصول على دعوة».

احمر وجه هنرييتا وهو ينحني ليصبح وجهه قريباً من وجهها، بحيث شمّت رائحة العطر الرجولي الدافىء، وهو يهمس في أذنها: «أنا أكره أعياد الميلاد في «فورذرينغهام» لكنني عالق في تقليد يعود تاريخه إلى زمن بعيد».

همست ترد، ومعدتها تتقلص: «هذا لا يعني أنك مضطر لمتابعة هذا إلى ما لا نهاية له.. أليس كذلك؟».

استقام: «لا.. لا أعتقد هذا.. أعتقد صدقاً أنني لم أهتم يوماً بما يكفي لتغيير التقاليد.. ولم يكن هناك شيء أفضل منها أمامي..

الحفلات، العشاء، الكوكتيل.. إنها ذاتها دائماً في فورذرينغهام كما في أي مكان».

هز كتفيه العريضين، وتأملها بعينيه الزرقاوين، وهو يطفح بالرجولة والهيبة، مضيفاً: «وهذا هو الميلاد».

قالت هنرييتا ببطء: «حين كنت صغيرة.. صغيرة جداً، في العاشرة كما أعتقد. أخذني والداي مع أخي دايفد إلى سكوتلندا في عيد الميلاد حيث قضينا العطلة في كوخ خشبي في مكان برّي منعزل».

ولم تعرف لماذا عاودتها الذكرى بحدة، لكنها كادت تشم رائحة الهواء الشمالي الحاد ورائحة الصنوبر النفاذة القادمة.

ـ أمضيت مع ديفيد وقتاً ممتعاً، حيث لعبنا بالثلج مثل بقية الاطفال، كان أبي يعشق كل دقيقة تمر على عكس أمي.

وحدقت في الوجه الأسمر الذي يراقبها جيداً ثم أضافت موضحة: «أنها سيدة متمدنة حقاً. ولم تعجبها الحياة هناك أبداً».

سألها جارد بنعومة، وقد أحس أنها لا تتكلم هكذا غالباً، وتساءل إلى أي مدى سيستمر حديثها قبل أن تعود مجدداً إلى قوقعتها المخيفة: «وأين هو والدك الآن؟».

ردت بصوت منخفض: «لقد مات وأنا في السادسة عشر.. كان رجلاً رائعاً، لكن والداي مختلفان تماماً، هو يحب النزهات الطويلة، وأمي لا تميل إلا إلى نزهات قصيرة.. أمر غريب.. أليس كذلك؟ لكنهما أحبا بعضهما البعض بعمق إلى آخر يوم عاشاه معاً».

ـ إذن كانت طفولتك سعيدة؟

ـ أجل.. كثيراً.

ولطالما باركت هذا الواقع في الأشهر المظلمة من زواجها.. فقد اكتشفت أن الأساس الصلب هو الأمر الوحيد الذي أبقاها عاقلة نسبياً.

سألت فجأة، قبل أن تفكر بكلماتها: «وهل كانت طفولتك سعيدة؟».

ـ لا.. لا.. لم تكن.

وحدقت هنريتا به، وبدا لها كأن قناعاً أسود غطى وجهه، وأفكاره وعينيه ثم سأل ببرود: «هل أحضر لك كأس عصير آخر هنريتا؟».

وكان هذا انذاراً صريحاً بالكفّ عن الاسئلة، فأجفلت هنريتا، وسادت لحظات صمت قبل أن ترد: «أجل.. شكراً لك. عصير برتقال أو ما شابه».

راقبته وهو يشق طريقه عبر باحة الرقص التي أخذ المدعوون بمغادرتها للتو. عندها فقط، أحست بوقع ما جرى، واخذت تتراجع، وتحس بالغضب.

لقد استجوبها منذ أول لحظة التقيا فيها. وها هي تطرح سؤالاً واحداً، واحداً فقط، وتتلقى معاملة جافة.. يا له من وقح.. أوه، لماذا لم تقل له هذا؟ كان يجب أن توضح له ذلك.. لكنها وقفت هناك وكأنها بلهاء.. تعوّد ميلڤاين على ارهابها بالعبوس هكذا.. وستكون ملعونة، ملعونة لو تركت أحداً يفعل هذا بها مرة أخرى.. حين سيعود، ستقول له رأيها بالضبط.

وقطع نوبة غضبها صوت السيدة بايكر المألوف: «آه.. ها أنت هنا عزيزتي.. أنا وهارولد على استعداد للذهاب الآن.. إذا كان هذا يناسبك؟ ولكن بامكاننا أن ننتظر قليلاً إذا أحببت؟».

وافقت هنريتا بسرعة: «لا.. أنا أكثر من جاهزة».

ابتسمت المرأة الصغيرة الجسم بحبور: «سنذهب إذن لنحضر معاطفنا.. هل نذهب؟ نستطيع توديع السيد جارد ونحن نخرج».

كان هذا يناسبها كثيراً، وارتفع وجهها قليلاً، وتراجع كتفاها إلى الخلف وهي تلحق بالسيدة بايكر إلى غرفة الملابس الكبيرة إلى جانب الحلبة، حيث وضعت معاطف الضيوف. كلمة شكر متصلبة برفقة السيد والسيدة بايكر، ستنهي هذه الأمسية المشؤومة. وبعد ما بدر منه من تجاهلها، فإن طريقهما لن يكون نفسه مرة أخرى. وهذا، من دون أدنى

شك أفضل ما يجب أن يكون.

وفيما كانت تلحق بالسيدة بايكر من غرفة الملابس إلى القاعة المكتظة، أوقفها صوت جارد العميق من خلفها: «هل غيّرت رأيك بخصوص العصير؟ هل أنت راحلة؟».

استدارت بسرعة وهي تبتسم: «أجل.. السيدة بايكر تريد الذهاب.. وكنا سنودّعك».

وقبل أن يتمكن من الرد، نادت: «سيدة بايكر؟ السيد قُنسنت هنا!».

استدار الزوجان، وتراجعا.. ولدقائق أدارت السيدة بايكر الحديث، وكانت هنريتا ممتنة لذلك. فهي لا تريد الآن سوى العودة إلى بيتها.. إلى حيث تستطيع أن تفكر.

ـ هيا بنا إذاً.

وتدّخل السيد بايكر لينهي ما أصبح موقفاً محرجاً، عندما جذب ذراع زوجته، وأبعدها إلى الخارج. أما هنريتا فقالت بعجلة: «شكراً لك جارد. إنها لأمسية رائعة.. ووداعاً».

لحقت بالسيد والسيدة بايكر من دون أن تنظر إلى الخلف.

ها قد انتهى كل شيء، لو لم تختر سيارة بايكر تلك الليلة لتتلف بطاريتها، وتصبح عاجزة عن الحركة.

كانت السيارات تغادر الواحدة تلو الأخرى، وأخذت هنريتا تصلي لأن يدور المحرك، لكنه لم يفعل.

استرقت نظرة سريعة إلى المنزل فأبصرت جارد واقفاً عند أعلى السلم الدائري. كانت صورته مع شقراء طويلة تستند إلى صدره بدلال، تنعكس بفعل النور الخلفي.

كائناً من تكون هذه الفتاة، لا دخل لها في من تختاره هي أو سواها حبيباً. ومع أن هنريتا لا تهتم بذلك، إلا أنها لا تحب أن ترى امرأة تقوم بمثل هذا الاستعراض وتجاهلت الاحساس بالغثيان في معدتها.

كانت قد اقتربت من الشقراء مرة خلال الرقص، ووجدت أن المرأة مذهلة الجمال، بشعرها الأشقر الذهبي الشاحب المعقود بعناية على قمة رأسها، وبشرتها الناصعة، وعينيها الكبيرتين الخضراوين.

وعندما ظنت هنريتا أن السيد بايكر سينفجر في وجه زوجته، سمعت نقراً على زجاج نافذة السائق وصوت بارد يقول: «هل يمكن أن أساعدك سيد بايكر؟».

أدارت هنريتا رأسها مع إحساس مؤلم بالاستسلام واليأس، لترى جارد يقف إلى جانب السيارة، بوجهه الخالي من التعابير، والشقراء العالقة بذراعه مثل رخويات البحر الذهبية.

وتمتمت هنريتا في سرّها بصمت.. هذا ما أنت بحاجة إليه..

وخرج الثلاثة من السيارة إلى الجو البارد المتجمد. كان هذا أبعد ما يكون عما تمنته من مغادرة هادئة جميلة.

كانت هنريتا تدرك لا مبالاة الشقراء العابثة، الممسكة بذراع جارد.. حين قالت: «ربما أستطيع المساعدة جارد.. لقد جئت الليلة في سيارتي المرسيدس».

عرفت هنريتا أنها لن تقاوم موجة الكراهية التي اجتاحتها.. وقال جارد: «لا تقلقي آنستازيا».

فكرت هنريتا بغضب، آنستازيا؟ بالطبع.. يجب أن يكون هذا هو اسمها.. أليس كذلك؟ ما من اسم عادي لمثل هذا النوع من الجمال.

وأكمل جارد: «السيد والسيدة بايكر يعيشان في القرية، لكن الآنسة نواك تقيم في «فرايرميل» ولا أعتقد أن المرسيدس سترتاح على الطريق الموحلة بعد أمطار الأيام الاخيرة. سأصحبهم في الرانج روفر.. لطف منك أن تعرضي هذا».

كان جارد وملكة الثلج، يبحثان أمرهم وكأنهم رزم للإيصال.. هنريتا لا يعجبها أن يشار إليها بصيغة الغائب وكأنها لا تفهم ولا تعي.

رفعت هنريتا هامتها، وقالت بحزم وهدوء:

ـ هذا في الواقع ليس ضرورياً، إذا كان لي أن أستخدم الهاتف لأطلب سيارة أجرة؟ وأنا واثقة من أننا لن ننتظر طويلاً.

رد جارد ببرود مماثل، وحزم: «لن أرضى بهذا فالرانج روفر جاهزة خارج المرآب».

وأشار إلى مركبة مهيبة، ضخمة لامعة تقف قرب سيارة فيراري حمراء لامعة.. وعرفت هنريتا على الفور أنهما له، وأكمل بإصرار: «لهذا، ما من مشكلة».

وشدّت هنريتا على أسنانها: «أوه.. لكن هناك مشكلة.. إنها الساعة الواحدة صباحاً، والطقس بارد متجمد. وبالتأكيد يجب ألاّ تقود سيارة بعد حادثتك تلك».

وكان ذلك خطأ ارتكبته.. وتبدل الوجه القاسي، واتخذت العينان الضيقتان قساوة الثلج الأزرق وأصبح فمه متجهماً.. وقال بهدوء: «أنا لست مقعداً هنريتا. عدت لقيادة السيارات منذ أسبوع، وستكونين آمنة جداً».

وأشارت الجملة الأخيرة إلى ما هو أبعد من قدراته على القيادة، وتسببت بارتفاع اللون الأحمر إلى خديها.

حدقت به، ورد نظرتها.. وقالت: «شكراً لك».

لن تستطيع الاعتراض أكثر من هذا، دون التسبب بمشهد غاضب.. وأكملت: «إذا كنت متأكداً أن ما من مشكلة».

قال برنّة صوت ناقضت فحوى كلماته: «بالعكس.. سيكون هذا من دواعي سروري».

قالت آنستازيا بحلاوة: «إذا كنت واثقاً من أنني لن أستطيع المساعدة، فمن الأفضل أن أذهب في طريقي يا جارد».

وطافت عيناها الكبيرتان على هنريتا مرة أخرى قبل أن تشيح النظر عنها بازدراء. وأكملت تقول لجارد: «لا تنسى أن والدي دعاك يوم غد، إلى حفلة غداء قبل أن يبدأ ضيوفك بالوصول بعد الظهر».

ـ لم أنسَ آنستازيا.. لكن كما قلت، أنا مضطر أن أتأكد من حسن سير الأمور، فأمسية الميلاد مثل حديقة الدببة في فورذرينغهام كما تعرفين.

كان صوت جارد وأسلوبه ينمان عن التعب، فيما انفجر صوت الشقراء الجميلة الناعمة، وفمها المكتنز، ضحكة خفيفة. وربتت على صدره العريض بيد حمراء الأظافر: «لا تشغل بالك حبيبي، سأحضر لإنقاذك وأنت تعرف أنك تستطيع الاعتماد علي».

راقبت هنرييتا آنستازيا وهي تخف لتقبل خده الأسمر، وكأنها تتسلى بلعبة ما. هذه المرأة مجنونة به، وهذا أمر واضح.. لكن، ما هي مشاعر جارد؟ لم يكن وجهه الصلب القاسي يفضح شيئاً.. ولا صوته وهو يستدير إلى الثلاثة، ويده تحت مرفق آنستازيا ليقول: «هلاّ عذرتموني لحظة؟ سأوصل اللايدي فيلمور إلى سيارتها».

لايدي فيلمور.. حسن جداً.

عاد جارد بعد دقيقة أو اثنتين.. وبينما كان الأربعة يسيرون عبر الفناء الأمامي نحو الرانج روڤر الزرقاء المعدنية اللون، رأت هنرييتا أنه يعرج كثيراً. وكان صوتها قلقاً حقاً وهي تقول بنعومة: «جارد.. هل أنت واثق أنك على ما يرام؟».

رد بحدة: «أنا بخير».

وفيما هو يطرف لينظر إليها، التمعت عيناه، وأضاف: «لا تقلقي.. ساقي تؤلمني دائماً في مثل هذا الوقت من الليل، بعد يوم متعب، وهذا كل ما في الأمر. وقيادة الرانج روڤر لا تستلزم جهداً».

عندما وصلوا إلى السيارة ساعد السيد والسيدة بايكر على الصعود إلى داخل الرانج المفروش بالجلد. وعندما فتح الباب الامامي، تسلقت هنرييتا من دون قول المزيد.

وتأملت هنرييتا بقلق المركبة الجميلة.. لكن وجود جارد إلى جانبها، وقوة وحيوية جسمه الرجولي، جعلتها ترتجف في أعماقها، واشاحت

بنظرها إلى الزجاج الأمامي الضخم.

وجدت هنرييتا أنها غير مضطرة إلى قول الكثير في الطريق إلى القرية.. فالسيدة بايكر لم تترك مجالاً لأحد. لكن ما إن وصل الزوجان إلى عتبة بابهما، حتى تكهرب الجو في السيارة.

كان الليل شديد الظلمة حين غادرا القرية، بأنوارها، واستدارا باتجاه «فرايرميل» حيث لم يعد يضيء السماء فوق الرؤوس سوى هلال رفيع، وعدد لا يحصى من النجوم المتلالئة، فيما لفّت ملاءة مخملية الأراضي الريفية بظلال رمادية قاتمة.

حين أصبح للصمت دوي مرتفع لم تعد تستطيع أن تتحمله، أجبرت نفسها أن تقول: «كانت حفلة جميلة جارد.. ولقد عرفت أنك تقيمها عادة كل ميلاد لأهل القرية والأصدقاء في الجوار؟».

ـ أجل.

الكلمة الوحيدة لم تكن مقدمة لحديث، وإلى أن استدارا عن الطريق الرئيسية نزولاً في الدرب الذي يوصل إلى «فرايرميل»، كانت هنرييتا قد صممت ألاّ تحاول التخفيف من الجو المكهرب بينهما مرة أخرى.. إنه متعجرف، صعب المراس، ومتغير المزاج كالريح.. وأقنعت نفسها بهذا صامتة. إنه يتصرف بشكل غير طبيعي.. في لحظة يهتم بها كثيراً، ثم يعاملها كما يعامل جدته، في لحظة أخرى. وها هو الآن الرجل القوي المغرور الصامت. حسن جداً، قد يكون «الوردَ» المنطقة هنا في هذا الجزء من انكلترا، لكنه بالنسبة لها، مثل أيّ رجل آخر.. تقريباً.

كانت قد تركت عدة أنوار مشتعلة في الطاحونة لتضيء لها الطريق. ومع توقف الرانج روڤر بوقار مَلَكي، تحضرت هنرييتا لكلمة شكر مختصرة، وخروج سريع من السيارة..

لكنه قال بصوت منخفض وهو يوقف المحرك، ليلفهما الصمت: «أنا آسف هنرييتا.. يبدو أنني أقول لك هذا دائماً.. أليس كذلك؟ لكن هذا صحيح».

استدارت لتنظر إليه حين تكلم وسألته: «أنت آسف؟».

لكنه كان ينظر إلى الأمام مباشرة.. ولم تعد تتبين وجهه جيداً.. فأكملت بحذر: «أنا لا أفهم».

ـ كنت صادقة معي جداً الليلة.. وأقدر لك ذلك..

أوه.. لا.. لا تضع السكين في الجرح، وأحست بالابتهاج للظلمة التي تخفي احمرار وجهها.

ـ.. لكن حين سألتني عن طفولتي.. حسن جداً، إنه موضوع لا أتحدث عنه كثيراً.

ـ أوه.. فهمت.

كانت متصلبة، متوترة، ولا تعرف ما ستقول.

وتابع جارد: «لدي ذكريات سيئة كثيرة عن طفولتي وسنوات مراهقتي..».

وبدت المرارة في صوته لأول مرة وهو يكمل: «وهذا أحد الأسباب التي جعلتني أفضل ألاّ أطيل إقامتي في فورذرينغهام. لم أعد إلى هنا إلا في تشرين الثاني بعد أن انتهى المشروع الذي أعمل عليه منذ تسعة أشهر في أميركا، ومع اقتراب موعد عيد الميلاد بدا لي أنّه من الأوْلَى أن أعود إلى الوطن في وقت أبكر قليلاً.. وعلى أيّ حال هذا لم يتم كما خططت له.

واستدار لينظر إليها، وابتسامة جافة على وجهه، وهو يشير إلى ساقه.

هزت رأسها موافقة: «لا».

لكن، نظراً لما حدث من قبل أحست أنها غير قادرة على طرح أيّ سؤال، وبدأت تبحث في حقيبتها عن مفتاحها.

ـ من الأفضل أن أدخل الآن.. سيتساءل مورفي..

ـ أنت حلوة جداً.. أتعرفين ذلك؟

كان صوته أجشاً، والظلمة دافئة خانقة في السيارة، وهو يبتسم لها ابتسامته المغناطيسية.. وقد لان وجهه القاسي وتجعدت زاويتا عينيه.

يجب أن توقف هذا.. إنها تعرف ماذا يريد. وتسبب هذا بازدياد نبضات قلبها، وتصاعد خفقان الدم إلى أذنيها.. يجب ألاّ يحدث هذا، لا يمكنها التورط مع أحد.. حتى في علاقة عابرة.. وبكل تأكيد.. بكل تأكيد، ليس مع جارد ڤنسنت.. فهو سيلوكها ثم يبصقها من دون أن يلاحظ ما يفعل.

لكن، وهي تفكر بالأمر، مال نحوها، وتمتم باسمها بصوت أجش.

وارتجفت لإحساسها بلمسته، وبقربه، ودفئه، وكان يعرف كيف يعانقها.. وأدركت هذا في اللحظة ذاتها. لم يكن تهجماً أخرقاً على أحاسيسها، وهو يزيد من عمق عناقه.

لكن ميلڤاين كان يعرف كيف يغازل كذلك. كما كان لطيفاً بشكل خطير، ومقنعاً، ومثيراً في البداية.

جاءت الفكرة من لا مكان. لكنها أعطتها القدرة على الابتعاد بقوة جعلت جارد يتأوه.

ـ ماذا بحق..؟

ـ أنا آسفة.. لكنني لا أريد هذا.

وشدت مقبض الباب، وكادت تقع إلى الخارج.. وبالكاد تمكنت من البقاء واقفة على قدميها.

لحق بها إلى خارج السيارة: «هنريينا.. أصغي إلي، أنا لن أؤذيك أو أجبرك على أي شيء لا تريدينه.. كنت أتمنى لك (ليلة سعيدة)».

قالت مقطوعة الأنفاس ومذعورة: «لا أريد تمنيات ليلة سعيدة.. ألا ترى هذا.. أريد فقط أن أترك وشأني.. هذا كل شيء.. لقد جئت إلى هنا لأكون لوحدي».

رفع جارد يديه مهدئاً وهو يتراجع خطوة: «حسن جداً.. حسن جداً.. وصلتني الرسالة».

ـ أعني ما أقول.

ولم يعد جارد ڤنسنت هو الواقف أمامها.. بل رجلاً طويلاً وسيماً

مذهلاً، ذا شعر طويل وعينين متراقصتين. . عينان من الممكن أن ينقلبا إلى سلاح حاد ليرعبها في لحظة. . كان ميلڤاين عبقرياً متقلباً، لامعاً، مخيفاً، وغير مستقر. وكان لنزواته قوة آسرة سوداء.

وآخر ما تريده هو أن تقترب من أحد. . وإن أبقت دفاعاتها متيقظة، وعينيها مفتوحتين، فلن ينالها الأذى مرة أخرى. الأمر ليس صعباً إلى هذا الحد.

كان وجه جارد خالياً من أي تعبير، وبارداً. . بارداً جداً.

ـ أعرف أنك تعنين ما تقولين هنريبتا.

قالت بارتجاف وهي تتراجع نحو باب الطاحونة السنديانى القديم الثقيل: «أحب حياتي كما هي الآن. . لدي عملي، ومورفي ليرافقني. . وهذا يناسبني تماماً، شكراً لك على هذه الليلة. . ».

ووجدت أصابعها المذعورة المفتاح، واستدارت لتفتح الباب: «ليلة سعيدة».

لم تعرف ما إذا رد عليها أم لا. . فقد دخلت بسرعة إلى الردهة الصغيرة وأقفلت الباب وراءها. . لكن، وهي تستند على الخشب العتيق، ومورفي يقفز من حولها في تحية ابتهاج، راح قلبها يخفق بقوة.

وساد الصمت طويلاً في الخارج، قبل أن تسمع هدير المحرك يؤذن برحيله. وكانت لا تزال تستند إلى الباب بعد دقائق طويلة ومورفي يجلس أمامها، وهي تحاول أن تهدّىء من دقات قلبها.

لا بد أن جارد يظنها مجنونة، وتطلعت هنريبتا إلى عيني مورفي البنيتين المحتارتين، مع موجة من الإذلال تغمرها. كيف تمكنت من أن تتجاوب معه هكذا؟

«أوه مورفي. . » وكانت آهة متألمة. كيف يمكن أن أكون حمقاء هكذا؟ ما كان يجب أن أتركه يعانقني. . وحين فعل، كان يمكن أن أتعامل معه بطريقة أفضل من هذا. أليس كذلك؟ لقد كنت متزوجة بحق السماء، وهو يعرف هذا. مع ذلك تصرفت وكأنني فتاة عذراء ساخطة

تدافع عن طهارتها.

تنهيدة مورفي العميقة، قالت لها إنه يفهم بؤسها، لكن لا حول له ليخفف من توترها.

نظرت إلى العينين المخلصتين وهزت رأسها خجلاً: «حسن جداً. . هكذا هو الأمر. . سيعتقد أنني متخلفة، ويتجنب هذا المكان مثل الطاعون».

وبما أنها لا تريد أي صلة به، هذا أفضل أليس كذلك؟ وكانت أفكارها تتسارع، لكن الفكرة الأخيرة لم تهدىء عذابها.

قالت «أكره الرجال مورفي». كان كلامها مؤلماً وقاسياً، ولم تصدق أذناها مثل هذا القول. ورددت بقوة أكبر «أكرههم جميعاً» ثم دخلت المطبخ لتضع مورفي في سلة نومه مع بسكوتة كبيرة على شكل عظمة شهية.

* * *

٤ ـ خوف في عينيها

كانت السنة الجديدة تنبىء بمناخ رائع، فقد حل الربيع مبكراً في الطاحونة، وتدفقت أيامه المشمسة الدافئة، العابقة برائحة الزهور.

كان مشغلها الملحق بالطاحونة، اسطبلاً في يوم من الأيام، قبل إصلاح جارد للطاحونة وتحويلها إلى منزل جميل. وأصبح غرفة مستطيلة فخمة مع غرفة ملابس خاصة، مغسلة وحمام صغير.

النوافذ الضخمة التي تحتل جداراً كاملاً، وتطل على الريف في الخارج، جعلت المكان مثالياً للرسم. وحين رأته هنرييتا أول مرة، وذكرت رغبتها في استخدام الملحق كمشغل للخزفيات، وللرسم، تم الاتفاق على أن تعيد الغرفة إلى وضعها السابق حين تترك المكان بعد انتهاء عقد الإيجار أي بعد ثلاث سنوات.

كانت محظوظة جداً، قالت هذا لنفسها صباح يوم من أيام نيسان المشرقة، وهي تنظر من النافذة الكبيرة، إلى الأراضي الريفية الممتدة بعيداً.

كانت الزهور البرية متفتحة في الممرات والحقول التي تحيط بالطاحونة. وغالباً ما كانت تشعر وكأنها «اليدي» وهي تتسكع في الأراضي الريفية ومورفي إلى جانبها ورسوماتها مع منصة الرسم تحت ذراعها.

أجل.. إنها محظوظة. وهزت رأسها بحدة للفكرة. ولم يقلقها أبداً أنّ جارد قنسنت لم يقترب من الطاحونة منذ حفلة الميلاد. إنها في الواقع لا تكترث للأمر كثيراً.

استدارت تنظر إلى حقيبة الملابس، وحقيبة السفر القماشية قرب باب

المشغل. كل الأواني الخزفية والرسومات شحنت إلى لندن قبل أسبوع.. وكانت ممتنة لأخيها وسيارته الكبيرة. لم يعد ينقص معرضها الذي سيقام في اليوم التالي، سوى وجودها.

رفضت هنرييتا عرض أمها بأن تحل في غرفتها الإضافية، مما أثار كدر الأم، لأن العرض لم يشمل مورفي. وبدلاً من هذا تمسكت بعرض أخيها لغرفة صغيرة في منزله، قد لا تكون مناسبة جداً لها ولمورفي، لكن عائلة أخيها تحب الكلب الألماني الضخم.

ـ تعال مورفي.. حان وقت الرحيل.

بقي طول الصباح عند قدميها منذ أن لاحظ أنها تجمع أغراضها، وكأن وجوده ينبهها إلى عدم التفكير بتركه وراءها.

كانت الرحلة إلى لندن، خالية من أيّ حوادث، وبعد زيارة المعرض وتبادل الحديث مع أمها وأخيها دايڤد، اتجهت إلى منزل دايڤد.. وتلقى مورفي هناك استقبالاً بهيجاً محموماً من بنات أخيها الثلاث وأخيهم الصغير.. وبعد أن عاد دايڤد إلى المنزل تناول الجميع اللحم المطهو مع الطماطم والفلفل الحار والبطاطس المشوية، وشمل هذا الطعام مورفي..

في اليوم التالي، كانت هنرييتا مشدودةً كأوتار البيانو أمام فكرة المعرض الوشيك المرعبة. وبعد تناول الفطور أصر أخوها على أن يصحبها معه إلى المدينة بسيارته الجاغوار الجديدة. فقد قال لها باستخفاف: «لا يمكنك الظهور أمام المعرض بكومة الحديد هذه على إطارات!».

ونظر إلى الميني العتيقة نظرة مريرة: «ماذا لو رآك أحد؟».

في الواقع لم يكن هذا يهم هنرييتا أبداً، لكن دايڤد شقيقها وهي تحبه.. ورحلة بالجاغوار، ثمن بسيط تدفعه لتبقيه سعيداً، كما أنّ هناك دائماً عنصر مخاطرة في قيادة سيارة صغيرة كسيارتها. وقد لا تصل إلى هدفها في الوقت المحدد عندما تكون تحت رحمة مثل هذه السيارة القديمة.

أوقف دايڤد السيارة خلف المعرض. وهما يستعدان للدخول من الباب الجانبي، أمسك يد هنرييتا وضغط عليها مطمئناً:

- تبدين رائعة.. ولسوف توقعين بالجميع يا أختي.

فردت مبتسمة: «عملي هو المعروض، وليس أنا».

كلماتها هذه تتناقض تماماً مع الساعتين اللتين انفقتهما في الصباح على زينتها قبل أن يستقر رأيها على فستان أخضر، وسترة مناسبة، وأكملت أناقتها بحذاء عالي الكعبين، وقرطين طويلين من الذهب في أذنيها، و «شينيون» أنيق عفوي لشعرها، في حين سمحت لبعض الخصل الصغيرة بأن تحيط بوجهها. بدت شابة متألقة، وكان ذلك أمراً هاماً لكسب زبائن دائمين لأنها حالياً تتدبر أمرها كل شهر بصعوبة بالغة. ولولا المبلغ الضئيل الذي بقي لها بعد تغطية نفقات ميلڤاين، لما تمكنت من تدبر أمورها.

كان الحضور يوم الافتتاح بحسب دعوات موجهة بالأسماء. أما الأيام الثلاثة التالية فمفتوحة للعموم.. وبعد الحادية عشرة بقليل بدأ أول المدعوّين بالوصول.. وبحلول موعد الغداء، همس دايڤد في أذن هنريتا، أن الحفل يجري بشكل جيد ومدهش.. وبعد خمس دقائق، سمعت صوتاً من ورائها: «إن سيرة النساك تناسبك، إذ كان عملك من هذا النوع؟».

استدارت وقد فغر فمها، وهمّ قلبها بالقفز خارج صدرها: «جارد؟».

- مرحباً هنريتا.

كان هو بوجهه العدواني الجذاب، كما تصورته مرات عديدة. أصبح الشعر الأسود الفاحم أكثر طولاً، مما زاد من شبهه مع ميلڤاين.. لكنه في الواقع، لا يشبه أبداً زوجها الميت.. وأخذت تفكر بهذا سريعاً قبل أن ترد على تحية جارد الباردة المنضبطة. فقد كان ميلڤاين فاتناً مثل نجوم السينما، ذوي الوسامة الكلاسيكية.. بينما ملامح جارد الخشنة لا تمتُّ إليه بصلة. لكن الرجلين متشابهان على الرغم من ذلك كله.

وأحست بعد لحظات، أنها لا تزال فاغرة الفم، فأسرعت ترسم ابتسامة ساحرة على وجهها، ثم قالت بصوت مرتجف قليلاً: «ماذا تفعل

هنا بحق السماء؟ هل.. وصلتك دعوة؟».

- وهل أبدو لك رجلاً من النوع المتطفل؟

في الواقع، بدا لها هذا. ولا بد أن وجهها فضح افكارها، إذ ضحك عالياً، وهزّ رأسه: «هنريتا نواك.. ستكونين سبب موتي.. أجل، يا فاتنتي اللدودة.. لدي دعوة».

- كيف..؟

وصمتت، ثم غيّرت اتجاه تفكيرها لتقول بصوت وقور: «ما كنت لأصنفك كشخص يهتم بهذا النوع من المناسبات».

وافقها الرأي: «أنا لا أهتم بمثل هذه المناسبات.. لكنني مهتم بالفنان.. وهذا أمر مختلف تماماً، أليس كذلك؟».

وتلعثمت هنريتا.. كيف يمكنها بحق السماء أن تتابع هذا الحديث؟ وماذا يعني بقوله أنه يهتم بالفنان وهي التي لم تسمع أو ترَ منه شيئاً منذ ليلة الميلاد المحرجة.. المحرجة بشكل رهيب؟ وكأنما رداً على أفكارها التي لم تتلفظ بها، تابع: «اضطررت للسفر إلى أميركا بعد الميلاد مباشرة، فقد ساءت الأمور بالنسبة لصفقة ظننتها منتهية.. وكانت النتيجة سيئة».

- ولزمك ثلاثة أشهر وأسبوعين لتحل المشكلة؟

يا للسماء.. لم تكن تقصد أن تقول هذا. وأحست بالغضب من نفسها وهي ترى عينيه الثاقبتين الزرقاوين تتسعان للحظة قبل أن تضيقا في تأمل مفكر على وجهها المحمر.

سأل بنعومة ورضى يدفع إلى الجنون: «وهل كنت تعدين الأيام؟».

فردّت على الفور: «لا.. لم أفعل هذا. لكنني أحب أن يعني الناس ما يقولون.. وكيف عرفت بأمر المعرض على أيّ حال؟».

- لقد ذكر لي رونالد هذا.. فهل من خطب ما؟ هل الأمر سر؟

نظرت إليه بقلق: «لا.. بالطبع لم يكن سراً».

كان رونالد يزورها مرة في الأسبوع في جولته على الأملاك الواسعة،

منذ أشرف على تركيب جهاز الإنذار ضد اللصوص في بداية السنة. وبما أنه الشخص الوحيد الذي تراه.. ولأنه رجل متزوج وسعيد مع زوجة رائعة، وأولاده المراهقين.. كانت تدعوه دائماً لتناول حلوى الفواكه التي تحضّرها يدوياً مع فنجان قهوة.

كانت أحاديثهما خفيفة جداً.. وتجنّبت عن عمد ذكر جارد.. لكنها على الأرجح، ذكرت أمر المعرض، ولو أنها لا تذكر.

قال جارد بصوت هو خلاصة البراءة: «ذكرت لرونالد أنني سأمضي هنا معظم أيام الاسبوع فتلطف ودبر لي أمر هذه الدعوة.. لا شيء غير قانوني، أو غير سليم، أترين ذلك»؟

ولعل صداقة رونالد المباغتة، لها دخل بأوامر تلقاها من جارد، بإبقاء عينه عليها. لكن، مع مرور الأيام والأسابيع، لم يُظهر جارد أي نيّة في تعميق علاقته بها، فتخلت عن شكوكها على أساس أنها مجرد جنون الارتياب. لكن الآن...؟ ونظرت إلى العينين الزرقاوين الجذابتين، وقررت أنها لا تشعر بقوة تكفي لتتابع هذه التساؤلات في هذه اللحظة.

إنه هنا، وهذا يكفي. وكل ما تستطيعه الآن هو أن تتحمل هذا، وتأمل أن يكون لديه اللياقة الكافية ليغادر سريعاً. لكنه لم يفعل.

انضمت والدة هنريبتا إليهما في المعرض بعد الظهر.. وكان دايفد قد سرّه سماع أن جارد ڤنسنت هو صاحب الملك الثري الشهير.. وحين قدّمه إليها برقت عينا ساندرا نواك اللوزيتان، بالترقب.

ورأت هنريبتا النظرة التي مرت على وجه أمها، وتأوهت في سرها، فأمها سيدة أعمال من الدرجة الأولى. كانت تثير إعجاب والدها الدمث الأخلاق.. إن جارد ڤنسنت الآن هو الطريدة، ولسوف تتملقه بعذب الكلام وتجعله يصرف المال إذا لم يكن حذراً.

كان من المفترض أن يقفل المعرض أبوابه في الساعة الرابعة.. وفي الثالثة والنصف لم تكن ساندرا نواك قد تركت جارد.. بعد لحظات من لقائه، قادته إلى زاوية هادئة فيها كرسيان مريحان، وطاولة قهوة.

ثم، تحدثا.. وتحدثا.. وتحدثا. وكلما نظرت هنريبتا إلى الرأسين الأشقر والأسود القريبين جداً من بعضهما، ارتجفت في سرها.. ماذا كانت أمها تقول له؟ وما هي الأسئلة التي طرحها؟ لا يمكن أن يستغرقا في حديث عن عملها لهذا الوقت الطويل، وكلما حاولت الانضمام إليهما وجدت أنهما يتحدثان في هذا.. كانت تعرف أنه غير مهتم حقاً بعملها.. فلقد قال هذا، بطريقة ما.. أولم يفعل؟ كما، أنها لا تثق به قيد أنملة.

في الرابعة إلا ربعاً، تركت ساندرا جارد وهمست في أذن ابنتها: «حبيبتي.. إنه رائع.. لماذا لم تذكريه قبل الآن؟ إنه مجنون بك، كما هو واضح».

نظرت هنريبتا إلى أمها وكأنها تلقت إهانة كبرى: «بالطبع لا.. وأنا بالكاد أعرفه.. ولهذا لم أذكره».

رفعت ساندرا نواك حاجبها الرفيع لتكمل: «لقد اشترى لوحات الفصول الأربعة.. أتعرفين هذا»؟.

ـ حقاً؟

ولم تستطع هنريبتا أن تحدد شعورها.. كانت تأمل أن يشتري أحدهم لوحات الفصول الأربعة، لكن، نظراً للسعر المطلوب، شكت في أن يتم هذا. وهي في رأيها، أفضل عمل قامت به.. اللوحات الأربع الجميلة، تصوّر الفصول المتغيّرة بجمالها المتميّز، مع الطاحونة القديمة كأساس لكل منها، وفي الخلف يظهر النهر المتموج، والحقول الخضراء. وقالت بصوت ضعيف: «حسن جداً.. بما إن جارد يملك «فرايرميل» فما من شك أنه يعتبر اللوحات نوعاً من الاستثمار».

قالت الأم بصوت جاف: «من دون شك.. ربما يجب أن تودّعيه؟ لطف منه أنه جاء».

أجل.. لطف منه. وهزّت هنريبتا رأسها قبل أن تأخذ نفساً عميقاً وتتقدم إلى حيث يقف جارد، أمام اللوحات التي اشتراها.

قال من دون أن ينظر إلى هنريبتا: «تعجبني لوحة الشتاء بشكل

خاص».

لكنه كان يعي وجودها وهو يكمل: «السماء رائعة.. وذلك النور الأبيض في السماء الفضية، رائع بشكل استثنائي».

لوحة الشتاء كانت المفضلة لديها وللسبب الذي شرحه بالضبط.. لكنها لن تقول له هذا.

ـ شكراً لك.. لكنني آمل ألاّ تكون أمي قد دفعتك لتشتري.. يمكن أن تكون عنيدة بشكل رهيب، ولا تقبل أن تواجه بالرفض أبداً.. ويجب ألاّ..

قاطع صوتها المتلهف بنبرة سلطوية هادئة، وهو يدير رأسه لينظر إليها: «هنريتا.. لقد أحببت اللوحات. وبالرغم مما تظنين بي، لدي من الحساسية ما يسمح لي أن أقدّر الفن بأشكاله المختلفة».

إنه يكرر فعلته.. يجعلها تبدو مخطئة تماماً.

وأكمل: «بعض عملك الخزفي مميز جداً».

جرّها معه في الغرفة وهو يتكلم، فانتزعت ذراعها من يده، رغم أن ذلك غير لائق بعد أن اشترى لوحات الفصول الأربعة.

ـ هذه القصعة مثلاً.

وتوقّف أمام عمل آخر مفضل لديها، قصعة بيضاء بسيطة من البورسلان الجميل، وسأل: «كيف توصلت إلى هذه الطريقة؟».

رفعت نظرها إلى وجهه الأسمر القاسي، تتساءل عما إذا كان يسأل تأدباً فقط.. لكنها رأت نظرة اهتمام في العينين الزرقاوين وهما تتفحصان القطعة الخزفية.. وفجأة، وجدت نفسها تتكلم بشكل طبيعي تماماً.

ـ يمكن لنموذج الرسم أن ينقش على جدران القصعة، ما إن يصبح الطين جافاً وطرياً.. لكنه فن دقيق، لأن الطين يجب أن يكون جافاً بما يكفي ليتحمل الضغط عليه بواسطة أداة النقش من دون أن يلتوي..

ـ وهذا؟

وأشار جارد إلى طبق مستدير كبير، داخله دوامة من اللونين الأحمر

والذهبي.

ـ آه.. هذه طريقة النقش على الرخام.

وتحركت من قطعة إلى أخرى وجارد إلى جانبها وهي تنغمس في الشرح، ثم، بعد دقائق، فوجئت بابتسامة على وجهه وهي ترفع نظرها إليه فجأة.

سألت فوراً بلهجة دفاع: «ما الأمر؟».

وفقد وجهها الحيوية وأصبح كئيباً وهي تشعر بالسخافة.. لطالما أجاد ميلڤاين لعبة جعلها تشعر أنها سخيفة.

سارع ليرد: «لا شيء.. أنتِ متحمسة جداً لعملك.. ملتهبة العاطفة. ويدهشني أنك قادرة على تحمل بيع أيّ قطعة منها».

تفحصته عيناها البنيتان الجادتان للحظة طويلة.. فأخذت أنفاسه تضيق، ثم ابتسمت واسترخى وجهها وهي تعترف: «الأمر صعب جداً، فهي تصبح جزءاً مني، مثل الأولاد. وهناك قطعة أو اثنتان لم أستطع بيعها».

في الماضي، كان لديها أكثر من قطعة أو اثنتين.. لكن في آخر نوبة غضب انتابت ميلڤاين، ليلة موته، حطم معظم كنوزها قبل أن تهرب من الشقة.. حتى أنه تمادى إلى درجة تمزيق لوحتها المفضلة، التي رسمتها عن صورة قديمة لوالدها.

ولم تدرك إلاّ بعد مرور بضعة أسابيع على زواجهما أنه يكره إبداعها ولا يثق به.. وكأنه يشعر أن عملها سوف يخفف من سيطرته عليها بطريقة ما. خاف أن تتفوق عليه، مثل نسر يحلق فوق «عصفور» حدائق عادي.

حين أدركت أن جارد ينظر إليها وعلى وجهه تعبير غريب، مسحت عنها الذكريات السوداء بسرعة وقالت بمرح هش: «لكنني أحتاج إليها.. فلا بد أن أكسب معيشتي».

ـ حسن جداً، إذا كانت كل أعمالك مثل هذه. فسيتدفق المشترون

عليك».

أصبح صوتها مكبوحاً الآن: «أشك في هذا».

وأحس جارد بالإحباط يصدمه.. وفكر متجهماً.. كان من الأفضل أن ترفع صوتها عالياً.. لكن لماذا يهتم؟ إنها ليست من النوع الذي يهواه عادة، بطريقتها المتوترة، وجحوظ عينيها، وهي تنظر إليه كأنه شيطان متجسد، وبتصرفها الذي يكاد يصرخ «لا تلمسني».. إنها لا تزال تحب ذلك الزوج الميت، وهذا وفاء زائد عن الحد.. وآخر شيء يريده هو التورط العاطفي مع أيّ امرأة.. لكن هذا لا يعني ألاّ يتمكنا من الاستمتاع بصحبة بعضهما.. أليس كذلك؟

التمتع بصحبة بعضهما؟

وسخر منه صوت في رأسه بقسوة، لماذا لا تكون صادقاً وتعترف بما تعني؟ وتحداه الصوت بقوة.. أنت تريدها.. لقد لهثت وراءها منذ وقعت عيناك عليها، ولعل السبب أنها مختلفة تماماً عما أنت معتاد عليه، بجمالها الهش ووجهها ذي النمش الطفولي.

أوه.. يا للسماء.. إنه لم يهتم من قبل بالتحليل النفسي، ولا ينوي أن يبدأ الآن.. ليس هناك شيء مميز في هنريتا نواك.. إنها امرأة مثل الأخريات.. وهز رأسه مؤكداً لنفسه الفكرة، ثم تخلى عن أفكاره بصرامة تحسده عليها ساندرا نواك.

تقدم جارد نحو هنريتا، وكان صوته منخفضاً وبارداً: «لا تشكي في هذا، أول ما يجب أن تضعيه في رأسك في هذا العالم هو أنك أفضل من الباقين، وهذه هي الطريق الوحيدة للوصول إلى القمة».

ـ ربما لا أعتقد أن من المهم جداً الوصول إلى القمة.

كان طول قامته ورجولته يصيبانها باليأس. والضيق الجاثم على صدرها، يمنعها من التنفس والحركة.

رد وقد رفع حاجبه: «إذن، لن تصلي».

أحست أنها تسيطر عليه لأول مرة ذلك اليوم وكان إحساساً جيداً:

«ربما لا. لكن، أينما كنت، سأتمتع بوجودي هناك، فهل تستطيع أنت قول هذا؟».

ـ أنا؟

لقد أصابت وتراً حساساً، وعرفت هذا. وبدا ظاهراً في اشتداد ذلك الفم الحساس وفي الطريقة التي ضاقت فيها عيناه لتصبحا كزجاج أزرق.. وأكمل: «نحن لا نتكلم عني».

ابتسمت بفتنة: «ربما يجب أن نتكلم عنك».

وافق من دون تردد: «حسن جداً.. على العشاء إذن».

وتلاشى هدؤها: «لا أعتقد هذا».

ارتكبت هنريتا غلطة النظر إلى الأسفل، وتركزت عيناها على القميص الأزرق المفتوح الياقة الذي يرتديه.. لقد كان يرتدي ربطة عنق حين دخل إلى هنا، وهي متأكدة من هذا. لكن، في وقت ما خلال الحديث مع أمها، اختفت الربطة، واختفى معها شيء من أناقته.

يمكن أن يكون عاشقاً من دون شك. وجاءت الفكرة من لا مكان، إضافة إلى حرارة مدغدغة في أعماق معدتها.. ويمكن حتى أن يكون غير متمدن.. ومشوّق كذلك.. ذلك العناق، منذ أسابيع مضت، قال لها إنه رجل يأخذ ما يريد كيفما يريد، ومتى يريد، من شريكة اختارها بنفسه. ولن يكون هناك رجاء ولا شكر.. ليس مع جارد ڤنسنت.. مع ذلك، لا تستطيع أن تتصوره جلفاً.. لعله مثير.. أو عابث، لكن تسلطه الرجولي يمكن أن يلين نحو المرأة التي..

عادت من حقل الذهول الخطر الذي أوصلتها إليه أفكارها وأدركت كم كانت شاردة التفكير، بعد أن قال جارد بصوت ناعم: «لن تستطيعي البقاء في برجك العاجي إلى الأبد هنريتا، هناك عالم كبير واسع أمامك. وعاجلاً أم آجلاً ستضطرين إلى الاندفاع فيه مرة أخرى وأن تبدأي بالحياة».

سألت متصلبة: «أنت تتهمني أنني لا أحيا لأنني أرفض مرافقتك

على العشاء؟».

ـ أجل.. أعتقد أنني أفعل هذا.

ومد يداً كبيرة ليرفع ذقنها بإصبع واحد، وينظر إلى أعماق عينيها.

ـ أي سبب آخر إذن؟

ـ الكثير.. كما هو حاصل.. و..

قاطعها: «ها أناذا.. وحيد في المدينة الكبيرة في عمل وسأقضي بضع ليالٍ في غرفة فندق لا اسم له ولا وجه وتنكرين علي صحبتك.. والآن، أنت لست شخصاً غير لطيف وغير كريم.. إذن، لا بد أن الخوف يمنعك من قبول دعوة صريحة من صديق».

ـ الخوف؟

ولم تصدق هنريبتا أذنيها، ثم أضافت من دون لياقة: «ومنذ متى أنت صديق؟».

رفع حاجباً بخبث: «لست صديقاً؟ وهل تنظرين إليّ كشخص غير صديق هنريبتا؟ ماذا.. بالضبط؟».

ردت بسخف: «لا أراك شيئاً، وأنا بالتأكيد لست خائفة منك. المسألة أنني أقيم مع أخي وعائلته في الوقت الحاضر، ومن الفظاظة أن أقبل دعوة عشاء في حين يتوقع دايڤد مني أن أعود معه إلى البيت. وأنا لا أرى أولاده كثيراً، ثم أن مورفي ينتظر..».

وتماسكت فجأة.. ماذا تفعل؟ ليست مضطرة أن تشرح له شيئاً.. وهو يجعلها تهذر وكأنها معتوهة.. يجب أن تهدأ وتسيطر على نفسها مجدداً.

ـ هل سمعت اسمي؟

لم تلاحظ هنريبتا تقدم دايڤد، لكن حين انضم إليهما، ولفّ ذراعه حول خصرها، شعرت بسعادة لوجوده لم تشعر بها يوماً.

قال جارد بهدوء: «لقد طلبت من هنريبتا الخروج معي للعشاء. لكنها قالت إن أولادك سيخيب أملهم لو قبلت.. ومورفي كذلك».

ونظر إلى وجه هنريبتا المحمر متجهماً.

فقال دايڤد بحبور: «إنها على حق».

وتضاعف حب هنريبتا لأخيها، ثم أضاف: «لكن، لا سبب يدعو أن لا تنضّم إلينا إذا كنت لا تمانع بقليل من الهرج والمرج».

وتذكرت هنريبتا كل الأوقات التي شد فيها دايڤد شعرها وأزعجها وهي صغيرة.. ولماذا كرهته على فترات متقطعة من طفولتهما.

ورد جارد: «لا أستطيع أن أفرض نفسي على حياتكم هكذا».

إنه فقط يبدي الأدب. وقال دايڤد: «أوه.. سارا معتادة على حضور الناس في كل الأوقات، وستحب أن تراك. أعدك بهذا.. ألن تفعل هِنْ؟».

وعرفت هنريبتا أن الاحتجاج لن يفيد.. ولكزها دايڤد بمرفقه.

فأجبرت نفسها أن تبتسم: «أجل.. سارا لن تمانع».

ابتسم جارد تلك الابتسامة التي تعلمت هنريبتا أنه يخبئها للمناسبات الخاصة.

ـ إذن.. سأحب أن أرافقكما.

وهذه المرة ظهر انتصار مؤكد في ابتسامته المشرقة.

ـ هاك.. سأكتب لك العنوان.

واستطاعت هنريبتا أن ترى لوحة «المال» في عيني دايڤد وهو يكمل: «هذا أقل ما يمكن أن نفعل بعد كرمك اليوم، ومن كان يظن أن صاحب الأملاك التي تشغلها هنريبتا سيحضر هنا اليوم».

من.. حقاً؟ وكررت التساؤل.. من حقاً؟

تمتم جارد: «لقد تمتعت بيومي، فأنا لم أشاهد من قبل أياً من أعمال هنريبتا.. وهي أعمال ممتازة.. وأنا أتطلع شوقاً لاكتشاف المزيد في المستقبل».

لكن براءته لم تخدع هنريبتا.

قال دايڤد بجدية: «حسن جداً.. نحن نرحب بزيارتك في المعرض

أو المحل، في أي وقت. لدينا دائماً بعض من أعمال هنريتا معروضة.. ولقد بدأت تبيع إنتاجها بشكل جيد حقاً».

هز جارد رأسه: «وأنا بالتأكيد سأشتري في أي وقت».

لقد اكتفت من كل هذا الحديث.. ألا يمكن لدايفد أن يفهم ماذا يعني؟ وهنا ضاعت كل ثقة هنريتا بنفسها، واندفعت إليها شكوكها وعدم إحساسها بالأمان منذ أيامها مع ميلفاين مجدداً..

رفعت نظرها إلى عيني جارد المتراقصتين. وبالرغم عنها، ارتسمت الابتسامة على شفتيها الناعمتين قبل أن تجبرهما على التجهم. وفكرت بحزم.. إنه كريه.. ولا يحتاج لمن يشجعه.. مسكين دايفد.. ماذا سيقول أخوها لو عرف أنه يشجّع آمال جارد في إغواء أخته الصغيرة؟

ـ تعال في الثامنة؟

وهز جارد رأسه إيجاباً، واتجهت عينا دايفد إلى المدخل وهو يكمل: «أراك فيما بعد إذن.. يجب أن ألحق بالسيدة دوفيشل قبل أن تغادر، إنها تملك مجموعة محلات في الوست إند..».

وأسرع ليرحب بامرأة ناحلة العود ترتدي ثياباً من صنع ديور وألماساً، ويغفو كلبها الأبيض الصغير بين ذراعيها.

كانت نظرات هنريتا تلاحق ديفيد إلى الباب: «لست أدري لماذا أتت؟».

واستدار جارد يراقب السيناريو الصغير الذي يجري على بُعد ياردات منه.. وأكملت: «إنها لا تهتم بأعمالي.. إنها تعمل في مجال النحت والفن الحديث، وكانت تحب أعمال ميلفاين..».

وتلاشى صوتها وهي تعي أنها المرة الأولى التي تذكر فيها اسم زوجها منذ مات. وانتظرت موجة الإحساس بالذنب التي تتملكها دائماً عند ذكر ميلفاين.. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، بل اعتراها حزن عميق.

سأل جارد: «وهل كان فناناً؟».

لكنها أغفلت نظراته، وشغلت نفسها بديفيد وهو يتودد للمرأة

العجوز. وقالت بهدوء: «لقد كان نحاتاً.. بارعاً جداً».

بارع ولكنه غير متوازن. أليست العبقرية أولى مراحل الجنون؟ لقد طرأت هذه الفكرة على بالها أكثر من مرة بعد وفاته.

ـ لن تستطيعي العيش في الماضي هنريتا.

وأعاد صوته عينيها إليه: «لقد مات وأنت لا تزالين على قيد الحياة».

ثم أضاف: «وستضطرين عاجلاً أم آجلاً أن تستجمعي قواك، وتنطلقي إلى الامام».

ـ أعرف هذا.

ولم تعجبها البساطة التي كان يأخذ بها الأمور. ماذا يعرف عن الكوابيس التي داهمتها أثناء الزواج. وها هي تدفع بمصيرها إلى الأمام..

سألها بلهفة: «وهل تعرفين؟ هل تعرفين حقاً؟».

رفعت ذقنها بتحدٍ: «أجل».

فسألها بصوت أجش: «إذن، لماذا قلت إنك تريدين أن تُتْرُكي وشأنك تلك الليلة؟».

لم يكن يعني أن يقول هذا، بل لم يعرف لماذا يقول هذا الآن.. فمنذ بلوغه سن الرشد، عاش حياته كما أرادها، برموزه الاخلاقية الخاصة، ومبادئه.

وأزعجتها زلة لسانها، وأرعبتها، ولكنها عادت لتقول بصوت ينم عن الصلابة: «لأن هذه هي الحقيقة، وأنا أعرف بالضبط ما أريده من الحياة».

تنفس جارد بهدوء، ثم ترك الأمور على سجيتها، وأمسك بذراعها وشدها إليه.

قال بصوت منخفض: «لا أصدق هذا.. قد تظنين أنك تعرفين، لكنك تخدعين نفسك هنريتا... فأنت دافئة وجميلة، ومليئة بالحياة. وهناك في الحياة أكثر من آنيتك ولوحاتك ووجودك كسيدة البحيرة».

أحنى رأسه، وطبع قبلة سريعة على خدها قبل أن يبعدها عنه، ويسير

مباشرة إلى الباب من دون أن ينظر إليها مجدداً.

بقيت ترتجف لدقائق بعد أن رحل. وأحاسيسها عالقة بقواه الرجولية المتدفقة التي تسبب لها الدوار.

إنه رجل فاتن.. اعترفت بذلك في سرها، بعد أن هربت إلى غرفة الملابس وهي ترتجف. إنه يمتلك تأثيراً متميزاً عن سواه. هل يمكنها أن تنكر ذلك؟ لكنه لا يعني لها شيئاً.. حقاً.

استندت إلى الجدار المغطى بورق الجدران وهي تتأوه بصوت منخفض في أعماق حنجرتها، وأغمضت عينيها بشدة.

وتمنت لو أنها لم تشاهد الطاحونة، والأكثر من هذا، تمنت لو أن جارد ڤنسنت لم يظهر في حياتها.

* * *

٥ ـ بالجرم المشهود

تراجع جارد إلى الوراء في مقعده، وابتسم لزوجة أخ هنريتا وهي تتطلع إليه بشيء يقرب عدم التصديق.

ـ كانت هذه وجبة شهية.

لقد كسب الجميع إلى صفه.. شرع بالفتنة ونصب الشراك منذ لحظة وصوله إلى عتبة البيت وذراعاه محملتان بالشراب والشوكولا والزهور.

وأصبحت زوجة أخيها، الماكرة الجريئة، كالعجينة بين يديه من أول دقيقة.. حتى الأولاد انسجموا معه قبل أن يصعدوا إلى النوم.

وحده مورفي لم يكن يشارك في شيء. ونظرت هنريتا إلى حيث يستلقي الكلب الكبير فوق عتبة الغرفة، رأسه الشامخ بين مقدمتيه الضخمتين، وعيناه البنيتان الحكيمتان مركزتان على جارد.

حين دخل الأربعة الكبار إلى غرفة الطعام ليأكلوا، لحق مورفي بهم صامتاً، واستلقى مجدداً على العتبة رافضاً الحركة.

وشعرت هنريتا بمحبة غامرة نحو هذا الحيوان المخلص: إنه يحرسني.. ولم ينخدع بالتصرف الساحر، وحديث الصداقة.. الصداقة! وكادت تنفجر سخرية للملاحظة. قد تعقد امرأة صداقة بريئة مع زميل في العمل، أو مع صاحب محل السمانة أو حتى مع حبيب سابق أحياناً. لكن.. مع جارد ڤنسنت؟ أبداً.

فجأة أحست هنريتا أن نظرة جارد اتجهت إليها، وبسرعة تحت كل

آثار أفكارها من وجهها، وتصنعت ابتسامة مشرقة على فمها لتقول: «سارا طباخة ماهرة، ودايڤد رجل محظوظ جداً».

هز دايڤد رأسه اقتناعاً، وهو يربت على معدته: «أعرف هذا».

وأحدث تعبير الرضى بالنفس ردة فعل باهتة، فلوحت زوجته بيدها طالبة حضوره إلى المطبخ في الحال.

حاولت هنرييتا أن تقف قائلة: «سأساعدك بالصحون».

لكن احتجاج سارا أوقفها. والجميع يعرف سارا وعنادها: «ابقي هنا، وتحدثي إلى جارد قليلاً بينما نضع الصحون في الغسالة، وننظف المطبخ قليلاً.. وسنأتي بالقهوة بعد قليل، اذهبا واجلسا في غرفة الاستقبال فالنافذة الزجاجية لا زالت مفتوحة على الحديقة، وهذه أمسية جميلة.. ولا أعتقد أن هذا السحر الدافىء سيستمر طويلاً».

الأمر ميؤوس منه.. الجميع تكاتف ضدها. نظرت هنرييتا إلى وجه جارد المعتد بنفسه، واعترفت بالهزيمة. لكن ذلك أفضل بكثير من عشاء حميم لاثنين.

على عكس ما توقعت هنرييتا، لم يستغل جارد وجود الزوجين في غرفة أخرى.

ـ منذ متى وهما متزوجان؟

ورفع حاجبيه قليلاً وهي تتجه إلى مقعد منفرد، متحاشية الأريكة الواسعة.

ردت هنرييتا بحذر: «منذ عشر سنوات.. لقد تزوجها دايڤد وهو في الثامنة عشر وكانت سارا في السابعة عشر».

ولم تشأ أن يعرف الكثير عن عائلتها.. لا تريد أن تنشىء أيّ صلات، مهما كانت ضعيفة مع هذا الرجل.

قطب جارد قليلاً: «إنها سن صغيرة جداً».

ثم انفرجت أساريره على الفور: «لا بد أنهما كانا واثقين من شعوريهما ليلزما نفسيهما هكذا؟».

كشف التعبير على وجه هنرييتا أنها لا تريد أن تناقش الأمر أكثر: «أجل.. أعتقد هذا».

وكانت لهجتها توحي بالرغبة في انهاء الموضوع حين أكملت: «لقد نجح زواجهما على أيّ حال.. أنهما يحبان بعضهما الآن كما كانا يوم تزوجا».

قال جارد بجفاء: «هذا هو الاستثناء الذي يثبت القاعدة».

ـ هذا تعليق ساخر قليلاً.

وصمتت فجأة، كيف تتكلم هكذا؟ إذا لم يكن جارد يؤمن بالنهايات السعيدة، فهي آخر شخص في العالم يجادله.

هز رأسه ببطء: «ممكن».

ثم نظر إلى الحديقة المعتمة وقال: «دعينا نجلس هنا في الهواء الطلق للحظات. إلا إذا كان لديك اعتراض؟ أنا أحب مثل هذا الوقت من المساء».

واستجابت هنرييتا لهذا التحدي، وقالت بصوت متصلب: «بالطبع لا، ولو أنهما سيأتيان بالقهوة قريباً».

ـ في هذه الحالة سننضم إليهما.

قال هذا بنبرات هادئة كمن يطمئن طفلاً. فكادت هنرييتا تقفز جنوناً.. إنه يعتقد أنها متوترة الأعصاب لأنها ستكون وحيدة معه في الخارج؟ فكّرْ أكثر جارد ڤنسنت! ولحقت به صامتة إلى الحديقة، العابقة بدفء العطور.

كان هناك مقعد خشبي صغير واحد في الزاوية البعيدة من المرجة الصغيرة.. حين جلست، وانضم إليها، أحست بقلبها يقفز إلى حلقها.. كان يضع عطر الحلاقة الذي أحبته من قبل، ذا الرائحة المثيرة المختلطة مع رائحة بشرته السمراء.. وأحست بمعدتها تتقلص وهو يستدير نحوها، واضعاً ذراعاً على ظهر المقعد، وفجأة وجدت هنرييتا أنها لا تستطيع أن تتنفس.

تمتم ببطء: «هذا رائع.. المنزل في الداخل خانق قليلاً.. ألا تظنين هذا؟».

وأكمل بعد لحظة مكهربة طويلة، وبعد أن أحست بأطراف أعصابها تتشنج ألماً وتكاد تصرخ:

ـ كنت محقة بوصفك لي بالساخر.. لكنني لا أظن أن هذا بالضرورة أمر سيء.. ألا تظنين هذا؟

ـ أنا..؟ لست أدري.

لم تكن تدري شيئاً مع إحساسها بجسمه إلى جانبها، وأشاحت نظرها بقوة. عندما عادت إلى المنزل، ارتدت فستاناً صوفياً أزرق، وتركت شعرها منسدلاً على كتفيها. لم تتزين عمداً، ولا جددت تبرجها.. فهي بالتأكيد لن تتأنق من أجل جارد قنسنت.

تابع قوله بهدوء: «أعتقد أن السخرية كلمة مرادفة للحذر. ويمكن أن يظهر ذلك عند المرء في أي سن.. بحسب الظروف».

ـ ومعك ظهر باكراً.

لم يكن كلامها هذا سؤالاً، لكنه هز رأسه موافقاً، وقال دونما عاطفة: «ماتت أمي وهي تلدني، ولأنني كنت الطفل الوحيد، عرفت الحرمان. أبي لم يتزوج مرة أخرى.. لكنه أقام علاقات متتالية.. معظمها لم يدم أكثر من بضعة أشهر. لم يكن بارعاً في التواصل.. مع ذلك تابع حياته بشكل جيد، ولعل السبب غيابه الدائم. ثم بلغت الثامنة عشر من عمري».

كانت هنريتا تعي أنها تصغي إلى وقائع مجردة، لم يتحدث في هذا الأمر من قبل.. وكان صوتها هادئاً وهي تقول: «وماذا حدث حين بلغت الثامنة عشر؟».

ابتسم بقسوة: «قابلت فتاة.. وكانت حب حياتي.. تعرفين كيف هي الأمور في مثل هذا السن. التقيت بها في أول يوم لي في الجامعة، وجاءت معي إلى البيت في عطلة الميلاد بعد أن أخبرت أبي أنني أحبها بجنون».

ـ ولم يوافق والدك عليها؟

ـ أوه.. لقد وافق عليها.

وكان في صوته رنة دعتها إلى الالتفات إليه.. لكنه حدق في الحديقة، ولم يعكس جانب وجهه القاسي المعتم شيئاً.

وأكمل: «لقد وافق عليها كثيراً».

ـ أتعني...؟

ولم تعرف كيف تتابع.

لكنه تابع: «أحبت ما كان يشتريه لها.. وأعتقد أن والدي استخدمها كدرس لي ليعلمني أن كل شيء له ثمن.. ولقد تعلمت الدرس جيداً».

ـ أنا لا أصدق أن بالإمكان شراء أي إنسان هكذا.

كانت تعترض برعب أكبر من أن تجرؤ على التعبير عنه.. كيف يمكن لأب أن يفعل شيئاً كهذا؟ أن يكون الأب بارد العاطفة نحو ابنه شيء، وأن يغوي أول حب في حياة ابنه شيء آخر؟ كيف يمكنه سرقتها والتباهي بهذا؟ هذا أمر مقرف مثير للغثيان. ما الذي يمكن أن يفعله هذا بجارد الشاب، الذي كان يتشوق للحب والعاطفة منذ أول يوم في حياته؟

هز جارد كتفيه، وقال بصوت ثابت لا يوحي بشيء: «وكما قلت.. هناك دائماً الاستثناء الذي يبرهن على القاعدة».

سألت مترددة: «وكم استمر.. هذا؟».

ـ أشهر عدة. عشيقات أبي لا يدمن طويلاً. اشتراها بسيارة رياضية، وبعض الحلي، وافترقا بعد ذلك، كما فهمت. كانت تعيش في «فورذرينغهام» خلال العلاقة، ثم اختفت، وسمعت من صديق مشترك، أنها تابعت الدراسة في جامعة أخرى في السنة التالية.

وأنهى كلامه بمرارة: «إنها من النوع الذي يعرف كيف يعيش».

إذن، هذا هو سبب غيابه الطويل عن «فورذرينغهام».. لا بد أن المكان عابق بالذكريات التي يفضل أن ينساها. ولأول مرة منذ موت

ميلفاين أدركت هنريتا أن الثلاثة عشر شهراً من زواجها، بالرغم مما حدث فيها، كانت رحلة قصيرة في حياتها.

وأرادت أن تبكي للولد الصغير الضائع، الذي كبر في منزل ضخم معتم فخم، وتخلى عنه الشخص الوحيد الذي كان يجب أن يكون الأقرب إليه.. ما هو الدمار الذي حلّ بدماغ هذا الفتى المحب للحياة بعد هذه الخيانة؟ يكفي أن تكون صديقته قد أغويت لتبتعد عنه.. لكن أن يكون الغاوي والده.. هذا أمر لا يمكن التفكير به.

ـ هل تحدثت في أمرها مع والدك بعد رحيلها؟

ـ لا...

نظر جارد إليها ببرود تام: «كنا نتصل فقط عبر الهاتف منذ عيد الميلاد ذاك، إلى يوم وفاته، ولم يطلب رؤيتي ليشرح لي أي شيء.. وأنا لم أقترح عليه هذا أبداً».

لماذا.. لماذا قال لها كل هذا؟ لقد دمر كل الأفكار المسبقة التي كوّنتها عنه.. والتي تمنت لو كانت قائمة فعلاً.. لم تشأ أن تراه بشراً ضعيفاً من لحم ودم، قادراً على الإحساس بالألم والجرح والتمزق والحرمان. هذا خطير.. خطير جداً، ولكنها لا تريد أن تعرف لماذا!

ـ أنا آسفة جداً جارد.

وكانت آسفة من أعماق قلبها.

ـ لست أدري لماذا قلت لك هذا.

وكان في صوته نبرة خفيفة من الحيرة، جعلت هنريتا تشعر أنه يقول الحقيقة. وهذا ما زاد من عذابها، وتمتمت: «ربما.. ربما كان الوقت مناسباً لتخبر أحداً؟».

ثم أُسرت عيناها.. فسارعت تتمتم: «جارد.. لا..».

لكن عناقه الذي ما لبثت أن غرقت فيه، لم يكن مماثلاً لما جرى منذ أسابيع، عندما جرها إليه. كان هناك لهفة، ووحشية، بعثتا في نفسها موجة من الاحاسيس العارمة، حتى وهي تقاوم.

ولم تعد تشعر بما حولها في الحديقة المعتمة.. وغاب العالم الصاخب خارج الأسوار عن مخيلتها، حتى المقعد الذي جلست عليه لم تعد تحس به البتة. وكان يرتجف وأحست به كمن تناول مخدراً.

وفجأة تحررت منه كما أمسك بها. كان يتنفس بخشونة وهو يقف، وبصوت متقطع قال لها: «من الأفضل أن ندخل هنريتا».

ـ أجل..

ولم تستطع أن تتحرك.. أرادت أن تتحرك.. أرادت حقاً، لتريه قدرتها على الانضباط، لكن ساقيها كانتا رخوتين، ورأسها يدور. إنه أمر مذل ومحرج، وتنطبق عليه مئات الأوصاف الأخرى، لكنه حدث.

تابع جارد بصوت منخفض ناعم: «أعتقد أن أخاك وزوجته سيعترضان على رؤيتنا «بالجرم المشهود» تحت أزهار شجرة التفاح؟».

تمكنت أن ترد وهي ترتعش: «لا أعتقد أن هذا ممكن».

ـ لا؟ لست أدري ما إذا كان يجب أن أشعر بالراحة أم الإهانة لإيمانك بقدرتي على التوقف؟

ورفع حاجبه متسائلاً.

نظرت إليه من دون أن تتحرك أو تتكلم. شيء من السخرية في كلماته لم يعجبها، لكنه اخترق ما تبقى من الضعف، وقالت بقسوة: «لم أكن أشير إلى قدرتك على التوقف».

وتلاشت المرارة من وجهها لتتركه ببياض الطبشور. لماذا يتصرف هكذا؟ وكأنه يريد أن يقلل من شأن تأثير ذلك العناق؟ لم تكن تحلم، حتى في أكثر تخيلاتها جموحاً، بعناق جارف كالذي غرقا فيه. هل يعانق كل نسائه هكذا؟ جرحتها الفكرة. وأزاحت آخر ما شعرت به من أسى لما فعله والده به.

سمعت نفسها تقول، قبل أن تستطيع كبح جماحها: «أنت مخطىء.. هناك فارق كبير بين السخرية والحذر. فالأولى هي نتيجة صدمة كائن بشري وتدميره عاطفياً.. بينما الثانية هي ببساطة مرادف آخر للحكمة،

وهما مختلفتان تماماً».

قال متجهماً: «تظنين هذا».

لكن هنرييتا عرفت أنها أغضبته، ولم تهتم أبداً، فهي تحاول أن تكون صادقة.. لم تطلب منه مشاركتها في ماضيه.. وإذا كان يريد سماع ما يريد سماعه فقط فمن الأفضل أن يستدعي إحدى عشيقاته.

وظهرت زوجة أخيها في الباب الزجاجي المضاء وديڤيد يسير وراءها. فاسترد جارد وعيه أسرع من هنرييتا.

- سنأتي في الحال.. كنا نتنشق الهواء العليل.. الجو جميل هنا، وبعض هذه الروائح رائع..

كانا يسيران عائدين إلى البيت وهو يتكلم وسارا تحدّثه عن النباتات العطرة مصدر فخرها وفرحها. ووجدت هنرييتا نفسها تراقبهما.. منذ لحظات مضت كان قلبه يخفق مثل المطرقة، وهو يعانقها ويشدها إليه، وقبل هذا حين حدثها عن طفولته، وعن صديقته في الجامعة، كان رجلاً آخر. لقد حرك في داخلها مشاعر متناقضة، لكنها خطيرة.

والآن؟ الآن ها هو الرجل الذي يراه العالم كله.. رجل الأعمال البارد، الساحر، الثري، المحترم الذي يسيطر تماماً على حياته ومستقبله.

وماذا يرى الناس حين ينظرون إليها؟ كانت عيناها على وجه سارا المفعم بالحياة، لكن تفكيرها ابتعد كثيراً.. أرملة شابة قادرة، ربما، امرأة أبلت حسناً بعد المأساة التي حلت بها. وهي ناجحة في عملها بالرغم من كل ما حدث.. لكن، ليس للناس فكرة عن تاريخها أو تاريخ جارد.. كم من الناس يخفون آلامهم وجروحهم، خلف وجوههم المشعّة وابتساماتهم المصممة؟ لكن هذا لن يساعدها في الوقت الحاضر.

أمر واحد مؤكد، هي وجارد غير مناسبين لبعضهما. إذا أراد أن يضع الماضي خلفه، ولعل هذا مستحيل، فسيحتاج إلى امرأة مثل سارا.. غير معقدة، متحمسة، ومرحة، من دون ماضٍ مأساوي.. لتعطيه الإيمان بالحب والحياة مجدداً.. أما هي؟ إنها لا تعرف ماذا تريد.. لكن

ما تحتاج إليه بالتأكيد، ليس جارد ڤنسنت.

أوه.. لماذا تسير أفكارها على هذا النحو؟ ليس هناك أدنى إمكانية أن يكون بينها وبين جارد حتى علاقة عابرة.. وكلاهما يعرف هذا. إنه.. ماذا؟ في السادسة والثلاثين أو السابعة والثلاثين، كما تعتقد السيدة بايكر.. وهو معتاد على نمط حياة يجعل من الصعب عليه الارتباط بامرأة بشكل دائم. وهكذا يجب أن يبقى. أما نوع نسائه، فهن مثل انستازيا، امرأة باردة جميلة تعرف الشروط وتحب أن تلعب اللعبة.

إذن، لماذا يؤثر عليها بقوة هكذا؟ وقطبت إحباطاً، إنها لا تعرف.. لكنها تتمنى لو تستطيع أن تبعده عنها.. إنه يعقّد الأمور.

بقي جارد ساعة أخرى.. ساعة وجدها الآخرون ممتعة، وتحملتها هنرييتا بصرير أسنان وهي تبتسم وتتبادل الحديث.

حين وقف أخيراً ليذهب، هبّت هنرييتا واقفة بخفة، وأدركت متأخرة، أن سارا وديڤيد أساءا فهمها حين قالت سارا بابتسامة: «يمكنك مرافقة جارد حتى الباب، بينما آخذ أنا وديڤيد هذه الأشياء إلى المطبخ؟».

أوه.. إنهما يعتقدان أنها تريد أن تكون وحيدة معه لبضع دقائق، واحمر خداها. ولم يسعفها تعبير الفرح في عيني جارد الزرقاوين.. وتمنّت أن يخرج بسرعة، لتعود على الفور إلى أخيها وزوجته لإلغاء أية فكرة كوّناها عن وداع طويل.

- اهدأي.

لكن بروده لم يهدئها.. وقالت بصوت حاد: «ماذا؟ أنا لا أفهم ما تعني».

- أنت كقطة فوق صفيح ساخن يا امرأة.

واستند إلى الجدار قرب الباب وكأن لديه كل الوقت في العالم، وزاد تعاظم سخطها.

نظرت إليه بغضب: «أنا لست هكذا، في الواقع..».

شبك ذراعيه على مهل وسأل: «نعم؟ ما الأمر بالضبط؟».

- إنهما يعتقدان..

ـ قوليها هنريبتا.. ماذا يعتقدان؟

إنه يتمتع بهذا.. إنها تلمح السرور على وجهه.. كان يعرف بالضبط ماذا تشعر..

أخيراً تمكنت من الرد.

ـ يعتقدان أننا.. مهتمان ببعضنا.. وأنا لا يعجبني أن يكوّنا فكرة خاطئة عني.

قال بهدوء: «هذا لم يحصل، بالنسبة لي. لكننا سبق وقررنا هذا هنريبتا.. فأنا مهتم بك مهتم جداً».

ـ أنت تتكلم عن الجنس!

ثم حدقت به مذعورة، وهي تستمع إلى ما قالته..

تراقصت العينان الزرقاوان وهو يهز رأسه بوقار: «هنريبتا.. أنت تفاجئيني.. هذا كلام دنيوي.. لم أكن اعتقد أن تفكيرك يصل إلى هذا الحد قط!».

ـ اسمع جارد..

وتوقفت فجأة، لتأخذ نفساً عميقا لتهدئة نفسها.. يجب أن تتكلم.. يجب أن تقول الأشياء كما هي.. وقالت بصوت أجوف:

ـ أنا.. أحتاج أن أوضح شيئاً.

وأرادت أن تقول هذا بطريقة صحيحة لا تجرحه.. وأدركت هذا فجأة، فأضافت:

ـ أنا لا أريد التورط مع رجل في الوقت الحاضر في صداقة أو أي شيء آخر.

وابتلعت ريقها بعد أن وجدت أن وجهه لم يتأثر البتة. وتابعت بشجاعة: «الأمر لا يتعلق بك. في الواقع، أنني سعيدة كما أنا الآن.. وطراز حياتنا متباعد جداً، بالطبع».

لم يحرك عضلة من وجهه وهو يجيب: «لا.. ليس متباعداً، لديك عمل تستمتعين به وأنت ناجحة فيه.. وأنا كذلك. أنت تخصصين وقتك

كله لعملك.. وأنا كذلك. أنت لا تريدين أي شيء يثقل عواطفك.. وأنا لم أكن يوماً قادراً على الالتزام وتقديم الورود.. وأستطيع القول أننا مناسبان تماماً».

تطلعت إليه ساخطة: «لا.. لسنا كذلك. فأنا لست جيدة في أية علاقة.. وأعرف أنني لن أكون، أنا لست هكذا، ميل.. ميلڤاين كان أول رجل في حياتي، و..».

ترددت، ثم قررت أن من الأفضل اعتماد الصراحة: «... لم يعجبني هذا الجانب من الزواج بشكل خاص».

قال جارد بهدوء: «إذن، لم يكن يقوم بواجباته الزوجية بشكل صحيح. أنت لست باردة هنريبتا، في الواقع، أستطيع القول إنك سيدة حارة العاطفة تحت هذه الواجهة المحتشمة».

تطلعت إلى الخلف نحو الردهة: «جارد».

إنهما في منزل أخيها بحق السماء.. ويجب ألاّ يقول هذا لها، ألا يهمه لو سمعه دايڤد وسارا؟

يبدو أنه لا يهتم، فقد أكمل بنعومة: «أنت تريديني هنريبتا. وكلانا يعرف هذا، وأنا أريدك.. الأمر في الواقع بسيط جداً، وصريح..».

وأرادت أن تصرخ: «أرجوك اذهب جارد» وتحضرت لتقول هذا، وسمعت مورفي يئن خلف باب غرفة الطعام، فقالت: «يجب أن أهتم بمورفي.. أنا آسفة..».

استدارت لتذهب. وأعادها صوته لتواجهه: «والأمر ليس مجرد رغبة.. تعجبني صحبتك هنريبتا، وأمتع لحظاتي هي تلك التي أقضيها معك. وقتنا معاً لا يمكن أن يكون مملاً».

كانت تتمنى الضجر مع ميلڤاين.. تشتاق إليه، تتوق إليه وسط نوبات العاصفة العنيفة في حياتها.. يمكنها أن تتعايش مع الضجر، إنه الجانب الآخر من قطعة النقد التي لا تزال تملأ نفسها رعباً حين تستيقظ في منتصف الليل من كابوس وتعتقد، ولو للحظة، أنها لا تزال متزوجة.

نظرت في وجهه مباشرة، وكان في عينيها ما دفعه للابتعاد عن الجدار وضاقت عيناه بعد أن قالت: «وداعاً جارد».

سألها بهدوء، وهو يعرف الرد: «هل هذه هي كلمتك النهائية؟».

هزت رأسها إيجاباً، لا تثق بقدرتها على الكلام.

فقال بنعومة، وشبه ابتسامة: «لا يعجبني هذا.. لكنك لم تتوقعي أن يعجبني أليس كذلك؟».

ـ جارد..

تابع ببطء وهو يقترب منها ليضمها بين ذراعيه: «إنها كلمة خشنة، غير لطيفة».

وعانقها بحلاوة وشدة جعلت الدموع تبلل جفنيها المغمضين.. وتشابكت أصابعه في خصلات شعرها، وهو يشدها إليه أكثر. ولم يتركها إلى أن أحس أنها تكاد تذوب بين ذراعيه.

وفتحت عينيها دهشة حين قال: «غير لطيفة أبداً».

وذهب، وأقفل الباب بهدوء خلفه فيما وقفت هي مسمّرة، وأفكارها مخدرة، وعزيمتها مشتتة. ثم قفزت نحو الباب، تناديه وهي تخرج بسرعة: «عنيت ما قلته جارد».

وكان صوتها مقطوع الأنفاس وهي تراقبه يستدير ليواجهها، ووجهه معتم: «أنا لا أريد أن أعطيك الانطباع الخاطىء، ولم أغير رأيي».

أكد لها ببطء: «أعرف».

أكملت بقوة أكبر: «ولن أغيره في المستقبل».

ـ ربما.

صوته الرجولي العميق كان بارداً غير مهتم: «لكن الوقت متأخر الآن، وقد أرهقت نفسك طيلة اليوم.. اذهبي إلى النوم هنريتا».

راقبته يبتعد من دون أيّ كلمة أخرى. وهي تستدير لتعود إلى الداخل، أحست باضطراب أعظم مما أحست به منذ موت ميلڤاين.

* * *

٦ ـ امرأة من نوع آخر

استيقظت هنريتا باكراً في الصباح التالي في الغرفة الصغيرة. وكانت خيوط الشمس الذهبية تقع على وجهها عبر النافذة المفتوحة جزئياً..

لم تنم جيداً، فقد كانت الساعة تشير إلى الثالثة حين استسلمت لنوم مزعج متقطع، حيث راحت تتقلب وتستدير، وصوت غطيط مورفي يتعاظم في أذنيها.

هل فعلت ما هو صواب؟ طرحت هذا السؤال على نفسها مئة مرة منذ غادر جارد في الليلة السابقة.. لكنها في كل مرة كانت تصل إلى الاستنتاج ذاته.. لقد قامت بالتصرف الوحيد الممكن لتحمي نفسها.

نزلت عن السرير، واتجهت إلى الحمام في نهاية الممر. كان لون عينيها الأحمر شاهداً على نوبات البكاء ليلاً، وشعرها مسترسل باسترخاء حول وجهها الشاحب.

ستحضر نفسها لحمام دافىء، ثم تضع الكثير من سائل ترطيب الجسم.. وربما ستطلي أظافرها.

نظرت إلى أظافرها، التي تعاني في عملها البدوي، وهزت رأسها أسفاً.. يجب أن تعتني بأظافرها. يجب أن تبدو رائعة اليوم، حتى ولو انهكها ذلك. أمامها ثلاثة أيام أخرى في لندن قبل العودة إلى هيرفورد شاير، ستقضيها مهزومة، ومهما كان الشعور في داخلها.

كان وجودها يوم أمس في المعرض، أمراً مفروغاً منه. وعليها أن تتردد إليه خلال الايام الثلاثة القادمة.. لكنها هذا الصباح، وعدت

مورفي بنزهة طويلة في «هايدپارك» وهذا بالضبط ما ستفعله.

أمضت وقتاً طويلاً في الحمام، وحين خرجت مرتاحة ومعطرة، أحسّت بتحسّن، على الأقل جسدياً.

ارتدت ثياباً عادية، بنطلوناً رمادي اللون وحذاءً مرتفع الساقين مع سترة ركض بلون العاج، ورفعت شعرها عالياً فوق رأسها ولم تضع الا لمسة خفيفة من الزينة لعينيها.. وقرطين صغيرين في أذنيها، ولمسة عطر على معصميها، وأصبحت جاهزة لتناول الفطور.

رن جرس الهاتف في الثامنة والنصف بعد أن خرج دايڤد من الباب وذهبت سارا لتودّع صغارها، الذاهبين إلى المدرسة ودار الحضانة. وهكذا التقطت هنرييتا السماعة.

ـ هنرييتا؟

دفع الصوت العميق الأجش يدها إلى عنقها بصدمة، وتسارعت دقات قلبها، ووجدت نفسها عاجزة عن النطق بكلمة.

ـ آلو؟ هنرييتا.. هل هذا أنت؟

أصبح جارد نافذ الصبر قليلاً.. وأجبرت نفسها على أن ترد، بعد لحظة صمت طويلة: «أجل.. هذه أنا».

وتمالكت نفسها لتقول بحزم أكبر وهي تكذب عبر أسنان مشدودة: «أنا آسفة، فمي مليء بالطعام».

قال بصوت متصلب: «حسن جداً.. اسمعي، لقد ألغي اجتماعي هذا الصباح، لذا لدي وقت إضافي أقضيه. ما هي خططك اليوم؟».

خططها اليوم؟ نقلت السماعة من أذن إلى أخرى غير مصدقة، خططها؟ هل هو أبله أم ماذا؟ لقد أمضت ليلة رهيبة وهي تقوم بتحليلات لا نهاية لها.. وها هو يسألها ما هي خططها؟

قالت بهدوء: «أنا مشغولة».

ـ تفعلين ماذا؟

ـ أشياء..

ـ هل يمكن أن تحددي أكثر؟

حاولت المناورة بطريقة مختلفة، وقالت بحزم: «جارد.. ظننت أننا قوّمنا كل هذا ليلة أمس».

وأطلت سارا رأسها من باب المطبخ تنادي: «مكالمة لي؟».

ردت: «لا.. لا أحد سارا».

قال الصوت الرجولي بجفاء: «رائع».

ـ سارا تتساءل عما إذا كانت المكالمة لها.

ثم سألت نفسها لماذا تزعج نفسها بتطييب خاطره.. إنها لا تريد أن تسترضيه بحق السماء. ويجب أن يفهم الرسالة.. أليس كذلك؟

ـ تعالي لتناول الغداء معي.

كان في قوله رنة عناد جعلتها تقطب جبينها سخطاً. ثم، وقبل أن تستطيع الرد، أكمل: «أعدك ألاّ أؤذيك فما رأيك؟ لسنا سوى صديقين من ذات المنطقة يلتقيان.. أعدك».

ـ جارد.. أنا فتاة لندنية بحق السماء.

ـ آه.. لكنك تعيشين في هيرفورد شاير الآن. لذا لا يهم.

شدت على سماعة الهاتف: «لا. لقد عنيت ما قلته ليلة أمس.. ليس هناك جدوى.. ألا ترى هذا؟».

رد بمكر: «لا.. لا أرى هذا. لذا أقنعيني، قابليني للغداء وأقنعيني».

أوه.. هذه سخافة! لو كان القرار قرارها، لأعادت السماعة إلى مكانها على الفور.. لكنها، تعرف أنه سيتصل مجدداً لو فعلت.. ولا تريد أن يعرف دايڤد وسارا قرارها بعدم رؤيته مجدداً. لقد أظهرا حماسة ليلة أمس.. ولا يمكنها الرد على الأسئلة التي سيطرحها عليها أخوها لو قالت له إنها ارتكبت الخطيئة التي لا تغتفر باستخفافها بولي نعمته الثري.

كان جارد قد وعد دايڤد أن يذكر المعرض والمحل أمام بعض أصدقائه وزملاء عمله. ولقد فرح دايڤد كثيراً، وكان جارد يعني هذا

بالطبع.. وما من شك أنه فهم دايفد في غضون دقيقة من لقائهما.

قالت ببرود بعد لحظة صمت طويلة: «في الواقع، لن أذهب إلى المعرض هذا الصباح، ولا أرتدي ملابساً تناسب لقائي بك في أي مكان للغداء. لقد وعدت مورفي بنزهة طويلة، ولا أخطط للعودة حتى بعد الظهر».

- ما من مشكلة. سأرافقك.

كانت هنرييتا تعرف متى تُهزم، لكنها قالت: «قد يكون هذا متعباً لساقك.. فأنا أنوي السير مسافة طويلة.. فهو مقيد الحركة منذ يوم أمس، ويحتاج إلى الركض».

قال بجفاء: «أعتقد أنني قادر على متابعة خطواتكما.. بالرغم من إعاقتي.. سأحضر بعد نصف ساعة.. هل يناسبك هذا؟».

لا.. لا يناسبها، وهو يعرف هذا جيداً. لكنها قالت: «عظيم».

واعتقدت أنها سمعته يضحك قبل أن يقفل الخط.

- من كان هذا؟

- إنه جارد. وهو قادم لنأخذ مورفي للسير.

قالت سارا متسائلة: «لكنك لا تبدين متحمسة جداً.. هل هناك شيء خاطىء؟».

ولم تكن هنرييتا واثقة تماماً مما ستقوله، فأصبح صوتها أكثر حماسة وهي تجيب: «أنا لست مستعدة لعلاقة، سارا. ولا أعرف ما إذا سأكون مستعدة يوماً».

وصمتت سارا، فهي لم تكن يوماً من النوع الذي يجرؤ على النقاش لكنها تحب أخت زوجها، وهي حزينة لأن زواجها لم يكن مفروشاً بالورود.

- أنا أعرف أن الأمور لم تكن جيدة بينك وبين ميلڤاين قبل موته، من الأشياء القليلة التي قلتها لي، بعد اقتراحه لتلك الجراحة الرهيبة، وأعرف أن دايفد يشعر بالذنب لأنه لم يلحظ هذا في وقته. لكن، الرجال ليسوا

كلهم مثل ميلڤاين.

- أعرف هذا.. هنا.

ولامست جبهتها بيد متعبة، ثم أضافت:

- لكن، في قلبي، أنا خائفة جداً من المخاطرة.. وإن قررت أن ألتقي رجلاً آخر، فلن يكون رجلاً مثل جارد.. إنه قوي جداً.. وجذاب جداً..

أكملت سارا لها الجملة: «مثل ميلڤاين؟.. اصغي إلي.. إنه لا يشبه ميلڤاين إطلاقاً».

قالت هنرييتا بهدوء: «على أيّ حال، إنه لا يسعى إلا إلى علاقة عابرة. لقد سبق وقال لي هذا..».

بدت سارا مصدومة: «وهل فعل هذا؟».

- أضيفي إلى هذا أنه عرف ماضياً قاسياً، وسنكون كأعمى يقود أعمى، سارا.. كيفما نظرت إلى المسألة، وجدتها غير مفيدة.

وتعانقت المرأتان.. ثم نظرت هنرييتا إلى مورفي الذي جلس مترقباً، قرب الباب الخلفي، ليذكرها بوعدها. فابتسمت للكلب الكبير، وقالت:

- سنذهب.. سنذهب.. لكننا لن نكون وحيدين في مشوارنا.

ونبح مورفي ترقباً.. لقد ذكرت سيدته تلك الكلمة السحرية.. لكن عينيه الذكيتين لمعتا فجأة، ورفع رأسه جانباً. هناك شيء ما في صوتها لم يعجبه.

على أيّ حال، لم تكن تبتسم بعد عشر دقائق حين ردت على قرع جارد الباب بقوة: «صباح الخير».

بدا رائعاً.. ووجدت هنرييتا صوتها يرتجف قليلاً وهي ترد التحية. كان يرتدي بنطلون جينز أسود وقميصاً بلون الفحم، مفتوح الياقة، رغبة منه في التأكيد على رجولته. وهو عادة مهيب بما يكفي، لكنه بدا اليوم في أوج خطورته. واحتاجت هنرييتا لبضع ثوانٍ وهي تثبت طوق مورفي، لتستعيد توازنها وشجاعتها.

لم تطلب منه الدخول.. فالسير مع مورفي، بين أناس آخرين، أمر معقول، لكنها لا تريد أن تكون لوحدها معه.. قال جارد: «سنذهب في سيارتي.. أليس كذلك؟».

هذا معقول.. فسيارتها تكاد لا تكفي لمورفي.. أجبرت نفسها أن تبتسم وهي ترد: «عظيم.. شكراً لك».

قالت بارتياب وهو يفتح لها الباب: «هل أنت واثق من أنك تريد أن يصعد مورفي إليها؟ قد يبدو نظيفاً الآن، لكنه سيكون موحلاً جداً حين نعود. ولا أعتقد حقاً..».

ابتسمت العينان الزرقاوان: «أنت تقلقين كثيراً.. لدي بطانيات في الصندوق يمكننا استخدامها لو احتاج الأمر.. وأنا أحب الكلاب.. وهي تحبني كذلك.. عادة».

ونظر إلى مورفي الواقف كالخفير إلى جانب هنرييتا.

ـ حسن جداً.. إذا كنت واثقاً.

وليكن وحده المسؤول.

ـ أنا واثق.

ما إن انطلقت السيارة حتى سألته: «هل تعرف كيف تصل إلى هايدپارك؟».

ـ أجل.. لكنني أعتقد أن هناك أفضل من هايدپارك، ألا تعتقدين هذا؟ كلب مثل مورفي بحاجة إلى حقول مفتوحة وروائح حقيقية يتمرغ فيها. وأنا أعرف مكانين جيدين للنزهة، منذ أيام الجامعة.

ولم يعجبها هذا.. لم يعجبها أبداً.

ـ سيكون مورفي سعيداً جداً في هايد پارك، ولا داعي حقاً للوصول إلى الحقول.

تجاوز الاحتجاج الضعيف: «قلت بنفسك إن الطقس سيسوء.. فأعطي الحيوان المسكين فرصة حقيقية اليوم».

قال ذلك موبّخاً، فاستدارت هنرييتا تنظر إلى «الحيوان المسكين»

الذي رد نظرتها، ولسانه يتدلى.. وقالت في سرّها احرص على أن تلتصق بي اليوم.. وإلا سأقطع أحشاءك.. هذا كل ما نحتاج إليه، مسيرة هادئة رومانسية في الريف من دون وجود شخص آخر على مدى البصر.

وبعد أن وصلا إلى مقصدهما بعد نصف ساعة، ووقفت السيارة في مرج معزول، وتسلقا مرتفعاً إلى الحقول الخضراء، وجدت هنرييتا أنها تتمتع بيومها.

كان جارد يُظهر جانباً آخر من شخصيته المعقدة. فهو مرافق أنيس، ذكي، ومسلٍّ.. حديثه ودّي غير متكلف، وتصرفه تصرف صديق، ولم تثق بهذا التحول ولا للحظة، لكنها شعرت بسعادة كبرى، وهي تسير معه في ذلك المكان.

كان الصباح جميلاً، السماء الزرقاء الخالية من الغيوم، والنسيم الدافىء اللطيف، يجعلان من كل خطوة متعة وراحا يتسكعان في الممرات عبر الأراضي الريفية المهجورة، حيث لا يقطع السكون المطبق إلا خوار الابقار وثغاء الاغنام.

وصلا إلى المقهى الصغير المسقوف بالقش بعد منتصف النهار بقليل، وفتنت هنرييتا بالمظاهر التراثيه القديمة.

ابتسم جارد لها عبر الطاولة، وجسمه الضخم مسترخ تماماً، وتراجع في مقعده، وعيناه الزرقاوان الثاقبتان، متجعدتان عند الزوايا.

ـ هل أعجبك المكان؟

ـ كثيراً. هل كنت تأتي إلى هنا دائماً وأنت طالب؟

أدركت أن شيئاً تغير في الثواني الأخيرة وأن الجو توتر.. ولعل السبب هو الطريقة التي ينظر فيها إليها، أو هذه الطاولة الحميمة لشخصين، المحجوبة في زاوية معزولة.

وأحست فجأة برجولته المميزة، وبرائحة بشرته، وسواد شعره، مما تسبب بكتم انفاسها.

عقد ذراعيه فوق صدره وأجاب: «غالباً.. بعد ما جرى مع

كاندي. . ».

إذن هذا اسمها. .

ـ . . مجموعة من الأصدقاء لازمتني. . أعتقد أنهم ظنوا أنني بحاجة إلى شيء يلهيني. . ومؤكد أنه بعد قضاء بعض الليالي المجنونة في الجامعة، النزهة في الريف مفيدة للجميع.

ـ أصدقاء من الجنسين؟

لم يكن السؤال لبقاً لكنها لم تستطع منع نفسها. .

نظر إليها من تعبير: «ماذا».

ـ وشاركت الإناث في إلهائك كما أعتقد. لقد لاحظت وجود حقول ذرة معزولة ونحن في الطريق إلى هنا.

أرجع خصلة شعر وهو يبتسم بكسل: «وهل لاحظت هذا؟ حسن جداً، كانت زمرة من الشبان، تجد نفسها لأول مرة من دون قوانين أبوية وأنظمة. . تعرفين كيف».

لكنها في الواقع لا تعرف. لقد نشأت نشأة محافظة، والتحقت بالكلية وهي لا تزال تعيش مع أمها. وكان دايفد متزوجاً يومها. ولم تشعر هنريتا أنها تستطيع ترك أمها وحيده بعد موت زوجها. . ولم تندم على هذه التضحية.

مال إلى الأمام فجأة، وعيناه تلمعان: «وأنت؟ قلت إن ميلڤاين أول رجل في حياتك. . لكن لا بد أنه كان لك أصدقاء قبله؟ هل مرحت؟».

قالت بهدوء: «أجل. . كان لي بضعة أصدقاء».

وكانت علاقات عذرية، لم تلامس قلبها أو أحاسيسها، وعندما تتحول العلاقة إلى الجدية، تنهيها في أسرع وقت.

لكنها لم تشعر يوماً بما يفترض أن تشعر به قبل الالتزام، قلباً وجسداً. ذلك الشعور الذي أحسّ به دايفد وسارا، وأبواها أيضاً، بالرغم من عدم تشابههما. لذا انتظرت، وتفجر ميلڤاين في حياتها بكل الإثارة، وبكل الحب الذي تمنته يوماً.

سألها جارد بصوت ناعم: «لكنك كنت تعرفين أنهم ليسوا مناسبين؟ أعني أصدقاءك من الشبان؟».

هزّت رأسها ببطء، وعيناها شاردتان: «أعتقد هذا».

لقد انتظرت الشيء الحقيقي، الحب. . فانظري إلى أين أوصلك هذا. . فكرت بمرارة قبل أن تصحح لنفسها، أنها كانت على حق حين انتظرت. حسن جداً. . لم ينجح الأمر، لقد ساءت الأمور. . لكنها كانت لا تزال على حق في انتظارها. . انهيار زواجها، موت ميلڤاين، لم يكونا من أخطائها.

نظرت إلى جارد مع تردد صدى القناعة في رأسها، لتملأ تفكيرها. إن جزءً كبيراً منها، لم يتقبل يوماً دورها كضحية بريئة. وإحساسها بالذنب وعذاب ضميرها غذيا الفكرة. لكنها كانت بريئة. . لقد بذلت قصارى جهدها لإنقاذ زواجها، ولم تكن غلطتها.

مد جارد يده يلامس ذراعها بعد أن أقلقه وجهها الشاحب، وتعبيرها الذاهل: «هنريتا؟ ما الأمر؟».

تجاهلت خفقان قلبها والذهول الذي رافق شعورها بالارتياح: «لا شيء. . لا شيء. . أنا. . أنا فقط مستعدة لتناول الغداء».

كانت الوجبة لذيذة وأكلت هنريتا بشهية.

ـ الطعام جيد تماماً كما أذكره.

كان قد التهم أكبر قطعة من الحلوى مع «الكسترد» ووجدت هنريتا نفسها تبتسم للهجة الشبع في صوته.

ـ كنا نملأ معدتنا هنا لأسبوع. . كان الطعام في الجامعة كريهاً.

ـ جارد. .

وترددت هنريتا. . يجب ألاّ تسأل لأنها لا تعرف كيف ستتلقى الرد، إذا جاء سلبياً.

وأكملت بهدوء: «هل ألغي اجتماعك اليوم حقاً؟».

ـ أجل. . ألغي الاجتماع.

وعندها هزّت رأسها واثقة برده، وجد نفسه يعترف: «أنا رئيس مجلس إدارة الشركة ومديرها الإداري وأنا الذي ألغيت الاجتماع».

تصلبت هنريبتا. وكان صوته هادئاً وهو يقول: «أنت لم تتركي لي خيارات كثيرة، وتعرفين هذا، أليس كذلك؟ كل تلك العدوانية الشرسة وعدم الثقة ليلة أمس.. ماذا كان أي رجل سيفعل؟ أنت تعجبيني هنريبتا..».

وتقلصت معدتها وهي تستمع لصوته الأجش الخفيض: «.. وأنا أردت أن أقضي بعض الوقت معك، وهذا ما في الأمر».

ـ كان هذا خداعاً.

ـ لا.. ليس خداعاً، أنت لم تطرحي السؤال المناسب. فالاجتماع ألغي.. ولم أكذب عليك.

قطبت في وجهه غير راضية.

ـ ماذا سيكون ردك لو طلبت منك تناول العشاء معي الليلة؟

فردت بحرارة: «تعرف ماذا سيكون».

ـ بالضبط.. هذا ما أريد أن أصل إليه.

ـ جارد.. لا يعجبني أن تناورني.

لقد كان ميلقاين سيداً بارعاً في هذا.

وبدت عليه دهشة حقيقية:

ـ وهل هذا ما أفعله؟

وجدت نفسها تحدق به ووجهها يحمّر: «بالطبع.. لا تمثل دور البراءة معي. أنت تعرف بالضبط ماذا كنت تفعل».

ـ لا أعتقد أن من المفيد لي طلب ظروف تخفيفية؟

حاولت أن تبقى غاضبة: «اعتقادك صحيح».

لكن جارد فُتنت في مزاج مرح، ومن الصعب مقاومته، ولقد اعترف بمراوغته لها.

وأكملت غاضبة: «أن تموّه الحقيقة أمر سيء بقدر الكذبة الصريحة..

وتعرف هذا».

تمتم: «ترين أمامك رجلاً نادماً».

ـ رجلا نادم؟ أجل.. هذا صحيح!

كان في لهجتها بعض الارتياب، فضحك فجأة عالياً. كاد الصوت أن يكون صدئاً، وكأنه لم يعد يحسن الضحك. أما هنريبتا فقد أحبت هذا الصوت كثيراً.

ـ هنريبتا نواك.. أنت حقاً امرأة مذهلة. لكن ما يلزمني هو التعوّد على صدقك هذا قليلاً، هل تقولين دائماً ما تعنينه بالضبط؟ ألا تعبثين قليلاً، أو تمازحين، أو تخدعين أحداً؟

بدت مذعورة: «بالطبع لا».

ـ بالطبع لا.. امرأة فاضلة.. حسن جداً.. ربما يجب أن أخطفك وأضعك في برج زجاجي حتى يتأمل العالم مثل هذه الظاهرة.

قالت بحرارة، ووجه قرمزي: «هذا حديث سخيف جداً».

ـ أنت على حق تماماً.

لكنه اعترف في سرّه وهو يكبح جماح نفسه أن الحديث كان منعشاً، ومنعشاً جداً. منذ متى لم يستمتع بوقته هكذا؟ منذ مدة طويلة.

وكم امرأة من اللواتي يعرفهن يقبلن بنزهة في الريف، وغداء في مقهى بعيد عن الطريق؟ ولا واحدة، فهن يحببن أن يراهن الناس، الصورة مهمة جداً لهن.. واختفى عن وجهه أيّ أثر للتسلية.

لقد تعمد أن يجمع أشخاصاً كهؤلاء حوله، أشخاصاً يتناسبون مع طراز حياته السريع.. والتافه. والفكرة تزعجه أكثر مما يحب أن يعترف حتى لنفسه. تصلب فمه، وضاقت عيناه.. لكن، هذه هي حياته.. إنه يحضر فراشه كما يهواه، وينوي الاستمرار في النوم فيه متى أراد.. لا شيء تغير.. لا شيء.

كان يعي أن هنريبتا لا تزال تنظر إليه عبر الطاولة، ونظر إلى ساعته، وقال بصوت بارد، لا يخلو من اللطف: «الساعة تقارب الثانية. وأنا

أعرف أنك لا تريدين أن تتأخري في العودة.. من الأفضل أن نتحرك».

إنه منزعج منها.. وأحست هنريتا بالتغيير فيه، وارتفع ذقنها متحدياً.. هل توقع منها أن تقع بين ذراعيه؟ وأن تكون مذهولة بسحره؟ لا شك أن هناك الكثير من النساء اللواتي على استعداد لأن يفعلن اكثر من هذا، لكنها ليست واحدة منهن.

لم تكن رحلة العودة لطيفة مع أن شيئاً لم يتغير ظاهرياً. ويقي مزاج جارد هادئاً ولطيفاً، لكنه بدا منطوياً على نفسه.

إنها لا تريد من جارد أن يهتم بها كثيراً على أيّ حال. كان سيواجه بصد محرج من ناحيتها، وهو لا يزال صاحب الأملاك التي تشغلها بالرغم من كل شيء. لا.. من الأفضل أن يدرك بنفسه أن لا شيء مشترك بينهما، وأنها ليست امرأة من طرازه.

هزت رأسها مؤكدة ذلك لنفسها، وهي تتحضّر لوخزة الأسى التي ستنتج عن الفكرة.

وأدارت نظرها إلى الأمام.. منذ أول يوم التقت به، احتلّ أفكارها بالرغم من كل جهودها، ويجب أن يتوقف هذا.. وستجعله يتوقف.

في السيارة، كان الجو أكثر سهولة.. ولو أن هنريتا وجارد ركزا على تنشق الهواء النقي عبر النافذة المفتوحة، ليتغلبا على رائحة مورفي، بعد أن وجد واحة موحلة في منتصف طريق العودة ليتمرغ فيها.

استدارت هنريتا نحو جارد معتذرة وهما يتوقفان أمام منزل دايڤد: «أنا آسفة بخصوص مورفي..».

نظر من فوق كتفه إلى مورفي، الذي ابتسم له بحبور، وقال: «أنت لا تهوين كلاباً من نوع روتشهاوند أو الشيواوا الصغيرة الحجم؟».

عرفت أنه يمزح، ومع ذلك كانت لهجتها دفاعية: «مورفي يناسبني تماماً».

اعترف مفكراً: «أجل.. ربما هو كذلك، عنيد صعب المراس.. أجل.. أستطيع أن أرى أنه مناسب لك».

فتح باب السيارة، وهرع لمساعدة هنريتا على الخروج من الجانب الثاني، ثم فتح الباب الخلفي آمراً: «تعال يا صاحب الرائحة الكريهة.. أخرج».

تمطى مورفي فوق بطانيته، وتثاءب ثم نزل من السيارة بثقة بالنفس ووقار.. ومن دون نظرة إلى جارد.. أرادت هنريتا أن تضحك.. فلو كان مورفي من البشر، لقابل جارد ڤنسنت نده.

قالت بسرعة بعد أن أمسكت طوق مورفي بشدة: «شكراً لك على الغداء الجميل جارد.. لا شك أنني سأراك في وقت ما في بلدتنا».

ـ لا شك.

مد يده يرفع وجهها نحوه ويقبل خدها بخفة قبل أن يتراجع خطوة وينظر إليها بعينين ضيقتين زرقاوين: «أجل.. لا شك».

ترددت، تشعر بالإرتباك لأنه لم يتحرك أو يبتسم: «وداعاً إذن».

ـ وداعاً هنريتا.

ولم يتحرك، وهزت رأسها محيية، ثم استدارت إلى حديقة دايڤد الأمامية، وبدأت تتحسس المفتاح الذي أعطته لها سارا.

وبدا أنه لزمها وقت طويل لتفتح الباب، ودخلت إلى أراضٍ آمنة.

كان لا يزال واقفاً حيث تركته حين نظرت إلى الخارج قبل أن تقفل الباب، ورفعت يدها في وداع نهائي، رده باطراقٍ صامت.

نظرت هنريتا إلى الوجه المكسو بالفرو وتنهدت بأسى: «أوه مورفي.. لا بد أن هذه هي النهاية الآن، أليس كذلك؟ سيعود على الأرجح إلى آنستازيا».

آنستازيا.. الليدي آنستازيا فيلمور والسيد جارد ڤنسنت.. الجملة تبدو مناسبة جداً.

* * *

٧ ـ أكرهه! . . . أكرهه!

عادت هنرييتا إلى هيرفورد شاير بعد ثلاثة أيام، متوترة، مشدودة الاعصاب، ولم تسمع شيئاً عن جارد منذ أن أوصلها إلى منزل دايڤد بعد مشوارهما في تلك الأمسية. وفي صبيحة مغادرتها لندن فتح دايڤد صحيفته وقت الفطور، وأطلق صفيراً طويلاً منخفضاً.

ـ ماذا بوسعكما أن تتخيلا؟

ونقل نظره من زوجته إلى هنرييتا، فرفعتا رأسيهما متسائلتين، وقد أثارتهما نبرته: «إنه يلهو هنا وهناك. . أليس كذلك؟».

سألت سارا بصبر: «من؟».

ـ جارد فنسنت.

وتوقف قلب هنرييتا عن الخفقان، ثم عاد ليضرب بقوة حتى أحست بالغثيان. مهما كان معنى هذا. . فهو لن يعجبها.

ـ يقولون هنا إنه ربح عقداً ضخماً للعمل في انكلترا بدلاً من التسكع في الخارج. ومما يقال هنا، إنه يضع يده مالياً على أكثر من مشروع. . لقد جعل الجميع ينحني له ليلة أمس. . هاك انظري.

لم تكن راغبة في أن تنظر لكنها فعلت. . مع أنها لم تفهم كثيراً. . فالصورة أخذت كل اهتمامها، صورة جارد المبتسم، وهو ينظر إلى الكاميرا بخيلاء. . ومن كان يتعلق بذراعه؟. . ومن غير الليدي آنستازيا فيلمور.

ـ من هي الشقراء؟ أتعرفينها؟

ـ لقد رأيتها. . مرة واحدة قبل الميلاد حين دُعيتُ إلى حفلة في فورذرينغهام. . اسمها الليدي فيلمور، إنها صديقة له.

ـ صديقة؟ أوه. . يا للسماء.

كان صوت دايڤد مثقلاً بالإعجاب، فقالت سارا بحدة: «دايڤد!».

وأشارت برأسها إلى وجه هنرييتا الشاحب، فأضاف من دون أن يضعف: «حسن جداً. . إنها «فوتوجينيك» دون أدنى شك، يمكن للكاميرا أن تغش كثيراً».

قالت هنرييتا بصراحة: «لا. . إنها بمثل هذا الجمال».

ورفعت رأسها تنظر إلى الوجهين الجالسين أمامها وتكمل بضعف، وابتسامة متكلفة: «لا بأس في هذا. . لا تظهرا نظرة المأساة هذه. . نحن لا نتفق مع بعضنا».

* * *

صرخت هنرييتا بصوت مرتفع «أكرهه!». . وكررت «أكرهه» وحاولت إقناع نفسها أنها تعني ما تقول «أكرهه».

بالطبع لا يوجد مبرر لإحساسها بأنه خدعها وأهانها. . ووبخت نفسها على الفور. جارد حر. . حر. . وهي التي رفضت أن تتورط، ولو أراد أن يشاطر أحداً حياته، فله مطلق الحرية. ليس من حقها أن تعترض عليه. . أوه. . هذا جنون.

أوقفت سيارتها، وتنفست بعمق في محاولة منها للحد من هذه الأفكار المجنونة. يجب ألاّ تجزع إذا لم يكن جارد مهتماً بها، أو على الأقل ألاّ تتضايق من ذلك.

يبدو أنه لا يزال يعبث، ومن يستطيع لومه ولديه جميلات المجتمع يلهثن وراءه؟ في الواقع، إنها تستحق هذا العقاب. . لقد تركت مخيلتها تجمح معظم الوقت. . لماذا يزعج رجل مثل جارد فنسنت نفسه، وهو الثري، ذو الجاذبية المدمرة، بشخصية نكرة مثلها؟

لقد كانت بالنسبة إليه تغييراً مؤقتاً يكسر به الرتابة والملل. وهذا كل ما في الأمر.. واضح أنها لم تناسب ذوقه، والآن ستعود إلى بيتها، إلى الطاحونة والأمان والهدوء، ولقد حصلت من المعرض على طلبات محددة لبعض الأواني الخزفية، وطلبين لرسم لوحتين شخصيتين.. وسوف تضطر إلى الإسراع في عملها لتنتهي في الوقت المطلوب.. ولا شيء، ولا أحد، سوف يخرجها عن مسيرتها.

كانت هنرييتا قد خططت لمغادرة لندن ذلك الصباح، لكنها لم تستطع أن ترفض طلب الاولاد للبقاء إلى ما بعد الغداء. إنها تحب أولاد أخيها كثيراً.. وابتسمت وهي تتذكر الوداع الصاخب، ومورفي وهو ينقلب على ظهره ليداعب الأولاد بطنه.

إنهم أولاد رائعون، وكلما رأتهم تصر على أنها لن تتخلى عن الرغبة في الانجاب، كما أرادها ميلثايين أن تفعل، إنها تحب الأولاد والحيوانات.. فهم صادقون دائماً.

كان المطر ينهمر زخات زخات. كان أسهل لها لو غادرت لندن في وقت مبكر.. وفكرت هنرييتا بهذا وهي تقود السيارة بحذر فوق الممر الضيق الذي يحيط به سياج شجيرات مرتفع.

حين برزت أنوار الطاحونة، تنهدت هنرييتا تنهيدة ارتياح طويلة.. لكن، في اللحظة التالية، صرخت بصوت مرتفع: «الأنوار؟ يجب ألاّ تكون الأنوار مضاءة مورفي».

وإذا لم تكن مخطئة، كان هناك دخان خفيف يتصاعد من المدخنة.. فما الذي يجري؟

ما إن توقفت الميني خارج الطاحونة، حتى انفتح الباب الأمامي ووقف أمامه رجل ضخم.. أسمر، مكفهر الوجه، مقطب الجبين.

فتح جارد باب السيارة حتى قبل أن تفك هنرييتا حزام مقعدها، وقال بصوت منخفض مكبوت: «هل أنت بخير؟».

رددت بغباء: «بخير؟».

وأصابتها رؤيته بالذهول فلم تستطع الحركة.

قال بحدة: «لقد تأخرت كثيراً في الوصول إلى هنا.. بدأت أعتقد بأن حادثاً حصل لك.. لماذا تركت لندن متأخرة هكذا؟ كان يجب أن تسمعي الأحوال الجوية، وأن تدركي أن قيادة السيارة في هذه الظروف خطرة، والطريق إلى الطاحونة غادرة، ومن الغباء محاولة الوصول إلى هنا في الظلام وفي سيارة غير ملائمة».

تطلعت إليه مشدوهة للحظات، مصعوقة بهذا الهجوم، ثم خرجت من السيارة بسرعة فائقة، وعيناها تلمعان ووجهها شاحب.

- لا يحق لك التدخل إطلاقاً في الوقت الذي اختاره للمجيء إلى بيتي.. ولست مضطرة لأن أفسر تصرفاتي لك أو لأي شخص آخر.. وكيف لك أن تعرف متى غادرت لندن على أيّ حال؟

- لقد اتصلت بدايفد لأتكلم معك بعد خروجك بوقت قصير.

كان صوته بارداً مثل رذاذ المطر المثلج الهابط على وجهيهما.

- حقاً؟

لقد مرت من قبل بهذا السيناريو من الاتهامات والمراقبة. وما من سبيل.. أي سبيل.. أن يأمرها رجل بالكاد تعرفه، رجل كان يزهو بإحدى نسائه أمام نظرها.. لقد انتقدها ميلثاين، وحط من قدرها حتى لم تعد تعرف الأسود من الأبيض.. وتعاظم الاضطهاد النفسي إلى أن أصبحت على بُعد خطوة من الانهيار.

صاحت بحرارة: «حسن جداً.. أنا لم أطلب منك أن تتصل، أليس كذلك؟ ولو أنني قررت أن أعود إلى بيتي منتصف الليل، فهذا ليس من شأنك أبداً».

كانت هنرييتا تعي أنها تسيء التصرف، ووقف جزء صغير منها متردداً يراقبها برعب، حفاظاً على النفس.

وعلى عكسها، بدا جارد قمة في البرودة، والخطورة. وعندما استدار ليعود إلى داخل المنزل، صاح بها قائلاً: «هل هذا كل ما عندك

لتقولينه؟».

بعد لحظات من الدهشة والارتباك لحقت به هنريتا، ومورفي في أعقابها..

صاحت هنريتا: «لست مضطرة لقول شيء.. هذه هي المسألة كلها، وأين تظن نفسك ذاهباً الآن؟».

كان صوتها مشاكساً ونظر جارد إليها مرة أخرى، قبل أن يتابع طريقه إلى المطبخ.

ـ سآخذ معطفي.. فهل تمانعين؟

صاحت: «أجل.. أمانع.. وأمانع كثيراً».

ارتدت العينان الزرقاوان لمواجهتها، وكان وجهه متجهماً وهو يرمي المعطف على كتفيه ويمر بها نحو الردهة: «قوية».

جن غضب هنريتا.. حتى كادت تنفجر.. كيف يمكنه أن يفرض عليها ماذا تفعل؟ ومن يعطيه الحق أن ينتظرها هنا على هذه الحال؟ قد يظن أي شخص أنه يملك المكان.. حسن جداً أنه يملكه، لكن هذه الحقيقة لم تكبح جماح غضبها. هل يعني ذلك أنه قادر على اقتحام المكان ساعة يشاء؟ لا سيما عندما تكون غير موجودة. إنها تستأجره لثلاث سنوات بحق السماء، وإذا أراد الدخول أو الاقتراب يجب أن يطلب الإذن، أو ينتظر دعوة، مثله مثل أي شخص آخر.

ولم تلبث أن صاحت بصوت مرتفع وهي تلحق به إلى الردهة: «لعلك تملك الطاحونة جارد، لكنني وقعت عقداً لاستئجارها للسنتين القادمتين.. وهذا يعني أنها بيتي حتى ذلك الوقت.. وإذا أردت الدخول، أفضّل أن تحدد موعداً في المستقبل. مفهوم؟».

رد بشراسة: «عظيم».

ثم أضاف مع تحول دمدمة مورفي إلى هرير واضح: «وبإمكانك أن تصمت، كذلك».

وصفق الباب الأمامي خلفه.

تحول احتجاج هنريتا إلى تنهيدة طويلة مرتجفة، وجلست على السلم الداخلي. لكن صوت سيارة خلف الطاحونة جعلها ترفع رأسها المنخفض، لتصغي إلى صوت محرك الرانج روفر القوي.. وسمعت صوت صرير الإطارات، بعدها هدير المركبة الكبيرة وهي تنطلق بسرعة فائقة.

وحل الصمت. وَقْعُ المطر، وعويل الريح، كانا الصوتين الوحيدين المسموعين.

كم من الوقت جلست هنريتا هناك مصدومة، لم تعرف.. لكنها وقفت أخيراً لتدخل حقيبتها وأكياسها من السيارة.. ثم تقفل الباب الأمامي، قبل أن تسير ببطء لتصعد السلم إلى غرفة الجلوس الكبيرة.

وقفت لحظات تنظر حولها.. رأت زهوراً في وعاء كبير تحت النافذة، وكومة حطب مقطع، وكان الموقد المليء بالحطب مشتعلاً، ليملأ الغرفة بالدفء. وكانت الستائر مقفلة في وجه الليل المعتم العاصف، وبدت الغرفة مرحبة دافئة.. أرادت فجأة أن تصرخ مع تلاشي خوفها وغضبها.

أحست أنها أسوأ حالاً بعد أن أفرغت حقائبها ونزلت إلى الطابق الأسفل.. كان البراد مليئاً بالطعام، ووجدت خبزاً على طاولة المطبخ.. وعظمة كبيرة مغرية، عرفت أنها لمورفي. كيف لم تر كل هذا حين لحقت بجارد إلى المطبخ؟

لا بد أنه اشترى لها كل هذا بعد أن اتصل بدايفد، وعرف برحيلها المتأخر.. فجاء لها بالحطب، وأدفأ لها المكان.. وهي.. أبطلت كل هذا. وأغمضت عينيها بقوة مع اهتياج معدتها ودورانها.

لماذا هاجمته هكذا؟ كان يمكن لها أن تقول إن سارا والأولاد منعوها من المغادرة باكراً كما خططت أصلاً.. لم يكن هناك ما يدعو لأن تغضب على هذا النحو.. كان قلقاً عليها، لكنها لا تريده أن يقلق.. لا تجرؤ على أن تثق برجل يقلق عليها.. لقد ظنت أن ميلقاين كان يحبها ويحميها

في البداية.. وقبل أن تفهم ما يجري.. وجدت نفسها في كابوس. واسترسلت في ذكرياتها المريرة.

لم تكن قادرة أن تأكل شيئاً.. فجلست لساعات أمام النار المتوهجة وفكرها يسرح، ليعود دوماً إلى نقطة محددة. يجب أن تذهب في الغد لرؤيته والاعتذار منه.

ربما لم تعرف ما هي دوافعه الحقيقية لتحضير كل هذا لها.. ولا تزال انستازيا فيلمور في الصورة.. وربما نساء أخريات.. من يدري؟ لكن، بغض النظر عن هذا، ما فعله كان لطفاً منه.. وستوضح له أنها لم تغير رأيها بعدم رغبتها بإقامة أي علاقة كما أنها ستكون مشغولة جداً في الأشهر القليلة القادمة، ولن ترحب بزيارة أحد. لكنها لا تستطيع ترك الأمور كما هي الآن..

لماذا يصر على أن يعقد الأمور هكذا، في كل مرة؟ لم تحصل على لحظة ارتياح منذ التقت به، وكل ما جرى بسببه.

صعدت هنريتا إلى غرفة نومها في الطابق الأعلى.. لكن اضطرابها حرمها النوم.

وفي الساعة الواحدة، سخّنت لنفسها كوب حليب دافىء... وفي الثالثة، تناولت الكاكاو والبسكويت، وفي الرابعة والنصف، تخلت عن فكرة النوم وجلست قرب النافذة، تلتف باللحاف الذي أخذته عن السرير، تراقب الفجر المتردد يطارد ظلمة الليل بأصابع زهرية رقيقة.

ستقصد فورذرينغهام بعد الفطور.. ولو رضي جارد باستقبالها، وقد لا يرضى، ستنهي أمر الاعتذار.. وينتهي كل شيء..

كانت الغيوم ترتحل عبر السماء الرمادية حين قرعت هنريتا جرس الباب الأمامي في «فورذرينغهام هول».. وأخذ قلبها يخفق بقوة حين بدأ الباب ينفتح.. لكن طالعتها السيدة باتن، مدبرة منزل جارد.

ـ صباح الخير سيدة باتن. هل من الممكن أن أرى السيد قنسنت لبضع دقائق؟ أنا هنريتا نواك.. أسكن في الطاحونة.

ابتسمت السيدة لها: «أجل.. أذكرك آنسة نواك».

وفتحت الباب أكثر مضيفة: «السيد قنسنت يتناول الفطور. لكنني سأقول له إنك هنا، ربما ترغبين في الانتظار قليلاً؟».

وأحست هنريتا أكثر فأكثر أنها لطفلة مشردة: «شكراً لك».

كانت الغرفة مرتبة ونظيفة مثل بقية المنزل.. لكن، حين جلست هنريتا على حافة أريكة مخملية جميلة، وركبتاها مضمومتان معاً، ويداها متشابكتان، أحست بالارتجاف. ويعود السبب إلى برودة الجو، نوعاً ما، فالغرفة نادراً ما تستخدم على ما يبدو.

ربما سيطلب من السيدة باتن أن تأخذ منها رسالة وتطلب منها الرحيل؟ وتلوت هنريتا قليلاً، ثم أجبرت نفسها أن تجلس جامدة.. أو ربما سيدخل عليها وهو في كل ذرة منه اللورد الاقطاعي السيد؟ على أيّ حال هناك شيء واحد مؤكد، إنه لا يزال غاضباً منها.

وانقطع حبل أفكارها مع انفتاح الباب مجدداً، وارتفع رأسها: «سيراك السيد قنسنت الآن آنسة نواك، في غرفة الطعام».

وكان في صوت المدبرة المتصلب، رنة عدم موافقة، وهي تكمل: «لو سمحت أن تلحقي بي؟».

ـ شكراً لك.

كان وجه هنريتا محمراً وهي تلحق بالمرأة العجوز إلى باب على يمينها.. وبدا لها هذا كمقابلة رسمية مع مدير مدرستها القديم.

ـ الآنسة نواك.. سيد قنسنت.

وتنحت جانباً لتدخل هنريتا، ثم أضافت: «سأحضر فنجاناً آخر بعد قليل آنسة نواك».

ـ.. أرجوك لا داعي لذلك، أنا لا أريد..

انقطع صوتها وهي تدخل الغرفة فقد فهمت سبب عدم موافقة المرأة الأكبر سناً.

كانت غرفة الإفطار أصغر من الغرفة الأخرى، وتعطي الانطباع

بالدفء والصداقة، على خلاف الغرفة الرسمية الأخرى..

لكن هنريتا لم تكن تنظر إلى الغرفة.. فقد انصب اهتمامها كله على الرجل الأسمر الجالس باسترخاء ولا يرتدي سوى روب حمام قصير مفتوح وبنطلون بيجاما حريري.

ابتسم جارد، وقال بصوت ناعم: «هنريتا.. ماذا أستطيع أن أفعل لك؟ أدخلي واجلسي وأخبريني».

لقد رأت رجلاً بهذه الهيئة من قبل.. لقد كانت متزوجة.. ألم تكن؟ لكن جارد فُنسنت مختلف.. إنه.. حسن جداً.. مذهل..

صدره القوي العضلات مغطى بشعر مجعد أسود، وكان قد أدار كرسيه لينظر إليها وهي تدخل بحيث أصبح جسمه كله بادياً..

يبدو أنه استحم قبل النزول لتناول الفطور وكان شعره رطباً، يسترسل مجعداً على جبهته في موجات سوداء فاحمة.

ـ أنا.. لم أدرك..

وأخذت نفساً عميقاً، محاولة أن تسيطر على نفسها.. لقد أرسل في طلبها إلى هنا متعمداً، وهو يعرف جيداً أنها ستتأثر.. ولا يمكن لها أن تمنحه هذا الشعور بالرضى. لكنها مضطربة.. أوه.. كم كانت مضطربة.

ـ ما كان يجب أن تقطع فطورك، يمكن أن أنتظر أو أعود في وقت آخر.

وقف بكسل، يجر كرسياً إلى جانبه ويشير إليها لتجلس.

ـ أنا لا أقطع شيئاً.. وأرغب أن تنضمي إلي.

قالت بسرعة: «شكراً لك، لكنني تناولت طعامي».

ـ قهوة إذن.. السيدة پاتن ستحضر فنجاناً آخر.

بقي واقفاً مدة أطول. ولم تستطع إلا أن تتقدم وتجلس.. وهذا ما أراحها. فقد كانت ساقاها ترتجفان وشكت في قدرتها على الوقوف كثيراً.

تمتم بنعومة ما إن جلست متصلبة: «والآن.. ماذا أستطيع أن أفعل

لك هنريتا؟».

كانت ستدهش جارد وتصدم نفسها إن أجابت على سؤاله هذا بصدق.. وبدلاً من ذلك قالت: «جئت أعتذر عن تصرفي معك ليلة أمس.. أنا.. لقد بالغت وأعرف هذا. وكنت أنت لطيفاً جداً بملئك للبراد وإحضار الحطب، وما إلى ذلك. ويجب أن أدفع لك الكلفة».

ـ لا تكوني سخيفة هنريتا.. أنا لا أريد مالك.

ـ أرجوك.. أنا أفضل أن أدفع.

وأخذت نفساً عميقاً، ولم تعد تستطيع إخفاء الارتجاف في أعماقها مع ارتجاف صوتها قليلاً: «سأشعر بتحسّن إن تركتني أدفع».

ـ وأنا سأشعر بالسوء أكثر، لاقتحامي منزلك.

ـ ماذا؟

نظرت إليه بدهشة، ومع دخول السيدة پاتن حاملة فنجاناً إضافياً، أطبقت فمها.. شكر جارد مدبرة منزله ثم قال بعد أن أصبحا لوحدهما مجدداً: «لا يحقّ لي أن أدخل بيتك، مهما كانت دوافعي. أفهم هذا الآن. لكن في ذلك الوقت فكرت في أنك ستصلين إلى بيتك متعبة ومرتجفة، وأردت أن أدفىء المكان، وأن أرى أن كل شيء على ما يرام، فقد بدا واضحاً أنك ستصلين متأخرة».

كانت العينان الزرقاوان صافيتين تماماً، وعندما استدار لينظر اليها، أكمل بهدوء: «لقد اتخذت لنفسي حق التصرف كصديق ولم يكن هذا من حقي.. أنت لم تخفي يوماً كراهيتك أو عدم ثقتك بي.. أليس كذلك هنريتا؟».

هذا أسوأ بكثير مما يمكن أن تتخيله.. وقالت مرتجفة: «جارد.. قلت لك إنني آسفة.. وأنا فعلاً آسفة».

ـ لا داعي للأسف.. أنا كنت مخطئاً، وليس أنت.. والآن، كيف تحبين قهوتك؟

ردت ببطء: «مع الحليب والسكر أرجوك.. وأنا لا أكرهك».

رد بحدة: «لكنك لا تثقين بي.. أليس كذلك؟».

ـ الأمر لا يتعلق بك...

وكرهت هنريبتا ما قالت بمرارة.. لكنها اعترفت أنها تدين له بالشرح.

ـ أعتقد..

وترددت.. هذا صعب، صعب جداً.

ـ أعتقد أنني خائفة حتى الموت من الثقة بأي رجل.

ساد صمت طويل، طويل، ثم قال جارد: «أتريدين إخباري بالسبب؟».

ـ لا.

وكان رفضها فورياً وغريزياً. وبالرغم من الجو المتوتر استرخى وجه جارد وابتسم: «حسن جداً.. هذا واضح بما يكفي.. هل لي على الأقل أن أسأل ما إذا كان الأمر يتعلق بزوجك؟».

ابتلعت هنريبتا ريقها: «أجل.. إنه كذلك».

ـ أفهم.

وفكر جارد بحدة.. لا تقولوا لي إن الغبي لم يكن مخلصاً لها.. لكن هذا هو التفسير الأقرب إلى المنطق.. وبقيت هي مخلصة له، من دون شك، تقوم بكل واجباتها كزوجة، وتحبه.. لقد رأى مثل هذا من قبل.. فالحب يجعل أكثر الناس غباءً مرشحاً لتعلم الحكمة، كما حصل له.

أخذت هنريبتا القهوة شاكرة، ووجهها لا يزال محمراً.. بماذا يفكر؟ لكن الوجه البارد الأسمر لم يكن يفضح شيئاً..

قال بعد لحظة: «إذن، يبدو أن الحياة لعبت معنا لعبة غريبة».

ولم تستطع هنريبتا أن تخفي ابتسامة، فسأل: «ماذا قلت؟».

ـ لا شيء.. كنت فقط أفكر أنك لاعب ماكر، وذكرت لتوك لعبة الحياة الغريبة.

ـ أنا بارع في أشياء كثيرة هنريبتا.

وأعادت الابتسامة الاحمرار إلى خديها، وتمتم: «يبدو أنك مصممة على إنكار الفرصة عليّ لأثبت هذا.. لكن في يوم ما..».

يوم ما.. لا.. وجلست مستوية وأخذت رشفة كبيرة من القهوة الساخنة.. ما بال هذا الرجل؟ لماذا لا يرتدي ثياباً لائقة مثل أي شخص آخر؟ وتجاهلت حقيقة أنها تناولت فطورها بثياب النوم أكثر من مرة.

قالت وهي تقف: «على أيّ حال، أردت فقط ازالة التوتر، وإبداء الاسف، و...».

قاطع اعتذارها بصوت ناعم، وقد رفع حاجبيه: «بزهني عن هذا».

حدقت به متوترة: «ماذا؟».

ـ أثبتي قولك.

وتقدم لينضم إليها حيث تقف واقترح بابتسامة خبيثة: «دعينا نتعانق ونتصالح».

ردت بضعف: «جارد لا تكن سخيفاً».

ـ عناق صلح بين صديقين..

وخرجت عن طورها.. إنه قريب جداً منها: «أنت لست صديقي».

ـ لكنني أحب أن أكون.

ـ السيدة باتن..

ـ لن تدخل إلا إذا قرعت الجرس.

وهي تفتح فمها لمزيد من الاحتجاج، شدها إلى جسمه بسهولة وخبرة وهو يجابه جهدها لتفلت من قبضته.

ووجدت هنريبتا أنّ اليدين اللتين وضعتهما لتدفعه عنها، جمدتا عندما لمستا شعر صدره الأسود.. وارتجفت تحت تأثير هذا الإحساس، وأحس كلاهما بهذا..

تحركت قليلاً بين ذراعيه، تمد يديها إلى كتفيه العريضين القويين، فضمها إليه بشدة ولم تعد تعي سوى جارد.. لمسته، رائحته تملأ دماغها وجسمها إلى أن أصبح العالم كله مجرد أحاسيس وألوان خلف عينيها

المغمضتين.. وتركت العناق يزداد عمقاً ببطء، لحظة فلحظة. وتردد مدى الارتجاف الذي هزّ جسم هنرييتا، في نفسه.

لم يساورها هذا الإحساس مع ميلڤاين. لكن الاسم لم يثر دلالات الشك والخوف والاشمئزاز من النفس فيها. بدلاً من ذلك شعرت بندم مؤلم، ودنت من جارد أكثر.

ثم سمع الاثنان رنين جرس الباب الأمامي وهو يدوي في واحة السعادة، فأجفلهما وتركهما يشهقان.

وتمتم جارد لاعناً. وانتزعت هنرييتا منه، واتسعت حدقتا عينيها فيما ارتجفت ساقاها، حتى اضطرت إلى الغوص مجدداً في المقعد الذي أخلته.

ـ من هذا بحق..

وأرجع شعره إلى الوراء بأصابع خشنة، ثم نظر إليها، ووجهه ممزق بمئة إحساس: «هنرييتا.. يجب أن نتكلم. كائناً من يكون الطارق ومهما كان يريد.. أنت تفهمين هذا.. أليس كذلك؟؟».

همست بضعف: «أجل».

لكنها لم تستطع أن تقاوم.. فعالمها انقلب رأساً على عقب.. إنها تحبه، لماذا.. لماذا لم تتعرف إلى الحقيقة البارزة في وجهها متحدية منذ أسابيع؟ منذ أسرّ لها بسرّ طفولته وأول حب له، لامس شيئاً أساسياً داخلها، وكان يجب أن تعترف لنفسها. وربما أعطاها ذلك حماية ضد ما يحدث الآن، لأنها تعرف، في أعماق قلبها، أنها ليست الوحيدة في حياة جارد.

وكأنما للتأكيد على هذه الحقيقة المرّة، دقت السيدة پاتن باب الغرفة بعد لحظات قبل أن تفتحه وتقول: «الليدي فيلمور هنا سيد ڤنسنت، ولقد أجلستها في غرفة الصباح».

فكرت هنرييتا أنه لا يبدو مهتماً.. وبدا صوته متوتراً قليلاً حين قال لها: «شكراً لك سيدة پاتن.. سأحضر بعد وقت قصير».

هل يستقبل كل نسائه نصف عارٍ؟ سألت هنرييتا نفسها بما يشبه

الهستيريا.. هذا ما يبدو.. وما إن أقفلت السيدة پاتن الباب حتى قالت: «من الأفضل أن أذهب.. واضح أنك مشغول».

قال بصوت أجش: «لا تتراجعي مرة أخرى.. في كل مرة أتقرب فيها منك تتراجعين.. وهذا ما يدفعني إلى الجنون».

أخذت هنرييتا نفساً عميقاً، وقالت ما في فكرها: «أنا لا أحب «الحريم» جارد.. أنا آسفة، لكن هذه هي الحقيقة».

ـ الحريم؟

ونظر إليها بعبوس جعد جبينه.

إما أن يكون ممثلاً فائق البراعة، أو أن الحيرة الحقيقية ارتسمت على وجهه.. فكررت بهدوء، وبصوت أقوى: «أجل.. الحريم.. أعتبر هذا ضعفاً أو عدم أمان.. لكنني أؤيد الزواج الواحد بطبيعتي، وأنوي أن أبقى هكذا.. والآن، أليس من الأفضل أن تهتم بزائرتك الأخرى؟».

نظر إليها بتعبير غريب جداً: «كل شيء في وقته.. دعينا نوضح هذا الأمر. ماذا قلت بالضبط؟».

قالت بحدة: «ظننت أن ما قلته واضح.. وبالتأكيد لست مضطرة للتكرار».

ـ امنحيني شيئاً من السلوى.

وكان يمكن أن تفعل هذا لولا أن انفتح الباب في تلك اللحظة. وقال صوت بارد ناعم كهرير القطط: «جارد.. حبيبي؟ لقد جئت إليك بنفسي كما ترى.. أوه.. الآنسة نواك.. أليس كذلك؟».

تطلعت هنرييتا مباشرة في العينين الخضراوين الباردتين الشاخصتين إليها.. وأدركت أن آنستازيا فيلمور عرفت بوجودها.. وبدا هذا جلياً في التعبير الخالي المدروس على وجهها الجميل، والصوت الحلو الملطف.. أنستازيا غاضبة، لكنها تخفي غضبها جيداً.

أجبرت هنرييتا نفسها أن تبتسم: «لا بأس.. كنت سأغادر».

وابتسم لها الفم الجميل، ليكشف عن أسنان بيضاء صغيرة: «حقاً؟

يا للحظ».

الحظ لمن؟ وأبقت هنريتا الابتسامة مكانها بقوة الإرادة وحدها.

ودخلت أنستازيا إلى الغرفة.. ورأت هنريتا أنها ترتدي ملابساً مثيرة عن عمد.. وتبرجها لا شائبة فيه، وبدت مناسبة جداً لتزيين ذراع جارد.

من ناحية أخرى، كانت هنريتا ترتدي بنطلوناً أسود اللون، وكنزة ليلكية شاحبة معقود على قمة رأسها، ووجهها يخلو من الزينة. وكانت ملابسها مناسبة جداً ليوم عمل في صنع الخزف، وشعرها كذلك، لكن هذا لم يسعفها كثيراً بينما راحت العينان الخضراوان تتأملانها بتفحص حاد، وازدراء صريح.

تطلع جارد إلى هنريتا بعينين قاسيتين: «أفضل أن تبقي هنريتا.. هناك أشياء أخرى نحتاج إلى مناقشتها».

إذا كان يعتقد أنها ستبقى لتتعرض للتشريح، بإمكانه أن يفكر جيداً، وقالت: «يمكن تأجيل هذا ليوم آخر».

سارت نحو الباب وهي تتكلم، ومَرت بأنستازيا فحنَتْ رأسها ببرود، ثم استدارت لتضيف، في لحظة خبث نادرة.. وبصوت مليء بالمعاني:

ـ وشكراً لك مرة أخرى على ليلة أمس جارد.

وتسنّى لها رؤية وجه جارد المذهول.. وصدى كلماتها القوي الصاعق في عيني أنستازيا، إذ ضاقت نظرة المرأة الأخرى وأصبحت مليئة بالضغينة.

كانَ جارد وراءها تماماً: «هنريتا؟ دعيني أوصلك إلى الخارج إذا كنت مصرة على الذهاب».

ـ لا داعي لهذا.

وأحست بالخزي لأنها سمحت لنفسها أن تُستفز أصلاً، وبالخزي أكثر لردة فعلها. وأقنعت نفسها أن السبب هو الطريقة التي نظرت فيها

أنستازيا إليها.. وكأنها شيء مقرف بغيض.

رد بصوت دافىء عميق: «بالطبع هناك داع».

ولم تستدر هنريتا أو ترد وهي تخطو بسرعة عبر الردهة الفخمة.. إنها تريد فقط أن تصل إلى بيتها.. إلى الطاحونة ومورفي وحياتها العادية، حيث الأمور تحت سيطرتها.. وهي تحتاج وتريد أن تسيطر على حياتها.. لكن، حين تكون قرب جارد فُنسنت، يتلاشى كل هذا.

ـ هنريتا!

كان صوته أكثر حدة وهي تحاول فتح الباب الأمامي، ولكن ذراعاً مفتولة العضلات، أمسكت بيدها على الفور: «انظري إلي».

كانت تشعر بطيف أنستازيا فيلمور الطويل النحيل وهي تستدير ببطء لتواجهه، مع أن الردهة كانت فارغة فيما عداهما. وجعل هذا الإحساس صوتها بارداً وهي تقول: «لقد قلت لك ما جئت لأقوله جارد.. وأود الآن أن أعود إلى منزلي».

نظر إليها متأملاً للحظة طويلة، بنظرة ضيقة مشدودة.. وسألها بهدوء: «وماذا عما جرى هناك؟ هل تقولين إن هذا لم يعنِ شيئاً لك؟».

تقدمت الكبرياء لإنقاذها، وتجمد وجهها: «أجل.. هذا ما أقوله بالضبط».

ـ فهمت.

بدا لها جذاباً بشكل ساحق وهي تستند إلى خشب الباب القاسي، وجسمه لا يبعد كثيراً، من دون أن يلامسها. فكررت: «هل أستطيع الذهاب الآن؟».

ورفعت ذقنها بشجاعة، فأسر نظرها للحظة أخرى: «طبعاً».

وتراجع خطوة، قبل أن يضيف:

ـ لقد كنت دائماً حرة في أن تذهبي، هنريتا... أنت تعرفين هذا.

رنت هذه الجملة في أذني هنريتا وهي تتحرك جانباً بينما فتح جارد الباب لها بوجه جامد.. حرة أن تذهب.. لقد كان الزواج من ميلڤاين

سجناً بالنسبة إليها.

لقد عرض عليها جارد أن تكون حرة في أيّ علاقة تقيمها معه، لأنه يريد أن يبقى مستقلاً ولا يتورط.

لكن، لماذا تفكر هكذا على أيّ حال؟ طرحت على نفسها السؤال في اللحظة التي خطت فيها إلى الخارج. إنها تحبه بالفعل، ولن تستطيع تحمل أن تكون مجرد لعبة أخرى بين يديه. فسيكون هذا مزعجاً، كما كان في علاقتها بميلڤاين، وإن كانت الأمور مختلفة نوعاً ما.

قال: «وداعاً هنريتا».

وبدا قوله نهائياً بشكل يبعث على البرود.

وعندما استدارت لتودعه، كانت زوايا وجهه الصارمة محددة جداً في النور الباهت.. ولاحظت في جزء صغير منفصل من دماغها أن المطر بدأ ينهمر مجدداً، رذاذ رفيع مستمر، يغطي شعرها ورموشها وهي تسير إلى سيارتها المتوقفة في أحد جوانب الطريق الداخلية.. وتساءلت للحظة، عما إذا كان جارد يدرك أن أنستازيا قد تعمدت مقاطعتهما.. لكنها هزت كتفيها بضجر ومن دون مبالاة.

الأمر لا يهم حقاً على أيّ حال.

لقد انتهى الأمر.. حتى قبل أن يبتدىء.

* * *

٨ ـ أخذ الحب ورحل...

على عكس ما توقعت هنريتا حين وصلت إلى بيتها يائسة، مجروحة الفؤاد، مر الأسبوع التالي بسرعة.

كانت تدفع نفسها إلى العمل من الفجر حتى المغيب.. وكالعادة، ثبت أن اللذة والاكتفاء الإبداعي الذي تكسبه من عملها اليدوي ترياق.. يوفر لها وسيلة هروب مناسبة من أفكارها السوداء.

لكن قصة الليل مختلفة.

أول ليلة أمضتها تتقلب بلوعة تأنيب الضمير، واستعادة الذكريات. وكانت تدخل المشغل لتعمل قبل أن يطلع نور الصباح التالي، ثم تحل الليلة التالية من دون تغيير.

كانت تعمل حتى ساعات متأخرة من الليل. لا تصعد إلى الطابق العلوي من الطاحونة لتنام إلا بعد أن تتعب فلا تستطيع التفكير.. ثم تستيقظ سريعاً، ومع أول نور للفجر، تبدأ العمل ثانية، بعد أن تغتسل وتغير ملابسها.

كانت تعمل، تتسوق، تطبخ، وتقاوم الرجل العملاق الأسمر الوسيم بشكل عدواني.

غمرها نوع من السلام، صبيحة اليوم الثاني، حين زارها رونالد، وذكر لها في معرض الحديث، أن جارد استدعي لعمل مستعجل لبضعة أيام.

وقال رونالد معلقاً: «أتعلمين.. لقد أمضى في فورذرينغهام هذه

المرة وقتاً أطول من ذي قبل».

وأخذ جرعة كبيرة من قهوته: «نحن في العادة لا نراه إلا في الأعياد والمواسم، أتعرفين هذا؟ الرجل العجوز، جده، كان يشرف على كل ما يجري.. وجارد مثله، إذا لم يكن أكثر».

هزت هنريتا رأسها من دون معنى محدد، وهي تفكر بأنستازيا فيلمور، لا شك أن سبباً وجيهاً حمل جارد على قضاء المزيد من الوقت هنا، بعد أن أصبحت الشقراء الجميلة تبدي اهتماماً أكبر بمالك فورذرينغهام.. ولأنها تعلم الآن أنّ لا مجال للالتقاء به صدفة خلال نزهتها مع مورفي، فإن قضاء الوقت في الخارج أصبح أكثر أمناً.

لكن موضوع علاقتها المحزن مع جارد، مع بروز مشكلة من نوع جديد، تتعلق الآن بمورفي، أثارتها زيارة رونالد التالية بعد أسبوعين.

قال رونالد، وهي تفتح له الباب:

ـ لم أحضر اليوم لتبادل الحديث، فالأمر أكثر خطورة.

ـ أكثر خطورة؟

وفكرت على الفور بجارد فانقلب وجهها أبيض جامداً.

ـ قد يكون الأمر بسيطاً، لكنني أفضل أن تكوني حذرة.

ـ سأصنع القهوة بينما توضح أنت لي الأمور.

قال رونالد باكتئاب: «لقد تلقينا تقارير تتعلق بتسمم الحيوانات الأليفة.. بدأت بالقطط في القرية. أعرف بعض الأشخاص يستخدمون السم لقتل الحشرات، لكنهم يعرفون أن الدواء قاتل ويستخدمونه بحذر كبير.. لكن، إما أن شخصاً ما أخطأ.. أو..

اتسعت عينا هنريتا، فقال متجهماً: «أو أننا نواجه شخصاً مجنوناً.. ربما شخصاً معقداً، لا يحب القطط.. أو الكلاب».

ـ الكلاب؟

وفطنت إلى الذعر في صوتها، فأجبرت نفسها أن تتكلم بهدوء، وسألت بضعف: «تعني أنه قد يبدأ مع الكلاب؟».

ـ لم أقل أن هذا أمر مقصود هنريتا.. لذا أرجوك ألاّ تقلقي كثيراً..

سألت متوترة: «وما هي الأعراض التي يجب أن ألاحظها؟

رد بصوت متجهم: «ستعرفين لو حدث هذا.. يبدأ التشنج، يتقوس الظهر.. ويرتفع الرأس إلى الوراء وتستقيم القوائم وتتوتر».

ـ وماذا أستطيع أن أفعل لإنقاذه؟

هز رونالد رأسه ببطء: «لا شيء هنريتا.. الأمل الوحيد هو إيصال الحيوان إلى طبيب بيطري. أنا أخبرك على سبيل الاحتياط لا غير، فلا تقلقي».

لكنها قلقت.. قلقت جداً.

وفي إحدى النزهات، بعد شهر من آخر لقاء لها مع جارد، قطع عليها افكارها وقع حوافر جواد قرب النهر. كانت هنريتا تجلس تحت ظل شجرة سنديان قديمة، تراقب مورفي يسبح في مكان ضحل على ضفاف النهر ويخيف السمك. رفعت رأسها، وغطت عينيها بيدها من وهج الشمس.. فرأته.. رأت جارد.. وقفز قلبها بجنون.

كانت ترتدي فستاناً خفيفاً برتقالي اللون، ولا يمكن إلا أن يلاحظ وجودها.. لوّح لها، ولوحت له، وعندما جرى الجواد نحوها، وقفت ببطء، وراقبته يقترب، وقلبها يدق بعنف دقات مجنونة.

بدا لها رائعاً.. رائعاً. ولم ترغب أن تلاحظ كل ما يتعلق به.. فهي لم تفعل هذا مع أي رجل من قبل.. حتى ميلقاين في أول أيام توددهما.. لكنها لم تستطع على ما يبدو أن تمنع نفسها.. بدا رشيقاً، قوياً، و.. مع تقدمه، لاحظت أنه هادىء للغاية، متباعد ويمكنها أن تفهم ذلك، نظراً لظروف افتراقهما الأخير.. مع ذاك، كانت لا تزال تشعر بالألم، مما يجعلها حانقه على نفسها.. وعليه..

قال من دون ابتسام: «مرحباً».

ـ مرحباً.

ولم تبتسم كذلك.

ترجل جارد بسرعة، يطمئن الجواد الأسود بصوت ناعم مهدىء وهو يمرر يده على أنفه، ثم استدار إلى هنريتا قائلاً: «إنه متوتر».

ولم يكن وحده المتوتر.

ـ سأعيد مورفي إلى الماء، فقد يهدأ.

كانت سعيدة لابتعادها عن شعاع عينيه الأزرق المدمر. لماذا.. آه.. لماذا وقعت في حب هذا الرجل الساحر؟

وأخذت تطمئن مورفي وتقنعه أن يعود إلى النهر.. وتساءلت لماذا لم تقع في حب شخص عادي، موظف يرضى أن يجز العشب في المرجة يوم الأحد، ويخرج معها لتناول العشاء مرة في الشهر؟ رجل من النوع الذي يمكن السيطرة عليه؟ أولاً ميلفاين، والآن جارد.. هل هي مجنونة؟

ربط جارد «إبوني» إلى غصن من شجرة السنديان.. وسألها: «كيف حالك؟».

سار بتكاسل إلى جانبها، وارتمى فوق العشب الدافىء، ثم ربت إلى جانبه يدعوها للجلوس.. وقال من دون تعبير: «تبدين وكأنك فقدت بعض الوزن».

هل يعني هذا أنه يراها نحيلة مغرية، أم أنها شديدة النحول؟ نظرت إليه... عبر رموش حريرية كثيفة.. وقالت صادقة: «وأنت كذلك».

ـ صفقات بملايين الدولارات، والحياة على حافة السكين.. تعرفين كيف هي الأمور.

إنه يسخر منها، وعرفت هذا.. مع أن الوجه الأسمر الذي لوحته الشمس بدا جاداً تماماً، وهي تنظر إليه مؤنبة، وأضاف: «فكرت بضرورة أن أمضي وقتاً أطول في انكلترا في السنوات القليلة القادمة. وهذا يعني أن أفوض مسؤولياتي إلى غيري ما أمكنني ذلك، ووجدت أنني قادر على هذا».

هزت رأسها من دون هدف: «أوه.. أرى هذا».

وتركزت أفكارها على الفور على الشقراء النحيلة الباردة كالثلج..

هل أنستازيا هي سبب تفضيله المفاجىء لشواطىء انكلترا الخضراء؟ وتراءت لها صورتهما في الصحيفة.. إنها جميلة، وذكية، وثرية، ولطيفة من دون أدنى شك. وستكون السيدة المثلى لفورذرينغهام.

سألها جارد بصوت منخفض بعد أن طال الصمت بينهما: «هل تذكرين مرة تعليماتك عن الفرق بين السخرية والحذر؟».

ـ أنا لم أعطك التعليمات بالضبط.. لقد أعطيتك رأيي فقط.. هذا كل شيء.

رد بجفاء: «وبقسوة كما أذكر».

ـ هناك أشياء أشعر بها بقوة.

قال بتركيز عميق: «وأنا كذلك.. أوه.. وأنا كذلك.. فإحداها..».

وصمت بغتة..

كان متمدداً إلى جانبها، لكنها جلست بوقار، وذراعاها ملفوفتان حول ساقيها.. جلست مستقيمة جداً، ومتصلبة، وكأنها عجوز محتشمة.

وارتكبت هفوة صغيرة، فأدارت رأسها إليه. وأغرقتها مشاعرها المشوشة مثل النهر المتدفق.

ـ لقد اشتقت إليك.

كان صوته ناعماً جداً، وأجش قليلاً: «أكثر مما كنت أظنه ممكناً».

لا.. لا.. لن تتقبل هذا. إنه ليس عدلاً.

وأرادت أن تبدو صلبة وحازمة.. وقالت بأنفاس مقطوعة: «أنا واثقة أنه كان لديك الكثير لتقوم به بدلاً من أن تشتاق إلي».

رد ببساطة: «إذن أنت مخطئة».

وتحركت بقلق بعيداً عنه، فقسى صوته، وأمسك ذراعها بيد لا ترحم.

ـ وسوف تصغين إليّ هنريتا.. أردت هذا أم لا. أنا لم أشتق إليك هذه المرة فقط.

وتجاهل شهقتها السريعة ودلالة رفضها.

ـ منذ أول مرة رأيتك فيها، لم تغادري مخيلتي، أينما ذهبت ومع أي شخص.. اعتقدت أن الأمر مجرد رغبة جسدية في البداية، شعور إما أن يتلاشى وإما إن يقوى.. وفي هذه الحالة، أستطيع التعامل معها بأن أكون معك، لكن الأمر تجاوز الحدّ.

انتزعت نفسها منه بحدة: «لا أصدقك».

اشتدت قبضته عليها: «لا ألومك.. لقد لزمني بضعة أشهر لأتقبل ما أشعر به.. لذا أستطيع أن أتفهم حاجتك للتفكير، بعد كل ما سأقوله لك».

ـ وماذا عن أنستازيا؟

هذا جنون، لا يمكن أن يحدث لها. ومع ذلك أليس هذا ما حلمت به منذ رأته، وفي أعماق روحها المعزولة؟ لكنه كان حلماً.. ولا يمكن أن يتحقق. تعرف أنه لا يمكن أن يحدث.. فجارد لن يدعه يتحقق. أما الآن، فهي تواجه الواقع، وهو يخيفها حتى الموت.. جزء منها تشبّث بالحلم، وآخر تمنّى أن يبتعد جارد فتنسنت عن حياتها إلى الأبد.

لقد سبق وقال لها ميلقاين إنه يريدها، يحتاج إليها، إن الحياة من دونها لا تستحق أن تعاش. وصدّقته، وتزوجته، لكن هذا الحب كان وهماً.. سراباً دمرها تقريباً وقتله هو.

تجعد جبين جارد.. ثم أجاب:

ـ أنستازيا؟ أنت تظنين..؟ أنستازيا ابنة صديق قديم لوالدي، وهذا كل ما في الأمر.. شركات العائلتين مرتبطة بالأعمال وما إلى هذا.

وتمكنت هنريتا من أن تقول بهدوء: «جارد.. أنا لست بلهاء.. لقد رأيت نظراتها إليك».

قال بتوتر: «لا يهمني أبداً كيف تنظر إلي.. أنا أقول لك إن لا شيء بيني وبينها وسأقولها بصوت مرتفع هنريتا..».

ومرر يده على شعره بطريقة تعني الإحباط الساخط: «.. أصغي

إليّ».

ـ لقد رافقتها إلى حفلات عشاء، وشوهدت معها..

رد بغضب: «لقد شوهدت مع نساء كثيرات، ولا علاقات لي بهنّ. وقبل أن تسأليني، آخر امرأة تواعدت معها من سنة ونصف.. ومهما افترضت، أنا لست فاسقاً.. عرفت نساء لكنني لست من النوع العابث، ولقد قلت لك هذا».

أجفلت لكنها ردت: «قلت لي، منذ أسابيع ليست بعيدة، إن الالتزام ليس خيارك.. وأنا معجبة بصدقك.. فلماذا تغير هذا الآن؟».

اعترف باكتئاب: «كنت أقاوم ما أشعر به نحوك. كذبت عليك، وعلى نفسي، هذه أول مرة يساورني شعور مماثل هنريتا.. أظهري شيئاً من الرحمة وحاولي على الأقل أن تفهمي موقفي. أنا لم أرغب في أن أقع في حبك.. لم أرغب بعلاقة حميمة أو التزام وكل ما يتعلق بهذا. أعترف.. لكن هذا الإحساس تملّكني، ولا يمكنني أن أفعل شيئاً.. إنه موجود.. وسيبقى».

ردت بسرعة: «أنت لا تعرف هذا. لقد سبق وقلت إن تلك العلاقات الأخرى لا تعني شيئاً.. فكيف تعرف أن هذه لن تسلك ذات الطريق؟ أنت لا تستطيع أن تثق بشيء.. اعترف بهذا».

كاد يفقد أعصابه، لكن معرفته الأكيدة بأنه سينسف كل شيء، مكّنته من أن يسيطر على غضبه.

وقال بثبات: «أنا لا أريدك لأجل علاقة، بل أريد أكثر من هذا. لقد عرفتك منذ خمسة أشهر وأنا واثق».

ولم يحاول التقرب منها أو معانقتها.. ومرة أخرى اعترفت بتناقضها مع نفسها وهي تدرك أن هذا بالضبط ما تريده. ومع ذلك، لو فعل، فسوف تقاومه كما لم تفعل من قبل، وتتابع مقاومته.

لقد صدقته فيما قاله عن أنستازيا.. في الواقع صدقت كل ما قاله.. لكن هذا يختلف عن الخوف الدفين الذي يشل كيانها.. لكن،

ماذا عن قلبها؟ قلبها قصة أخرى. ولعل السبب في هذا أن المحنة التي عاشتها لثلاثة عشر شهراً لا تزال حية وقريبة؟ ربما لو التقت جارد بعد خمس سنوات، أو حتى سنتين أو ثلاث، لشعرت بشكل مختلف. لكنه هنا الآن، وعليها مواجهته..

قالت هنريتا بصلابة: «وأنا واثقة أنني لا أريد علاقة معك من أي نوع. أنا آسفة جارد.. لكن هذه هي الحقيقة».

ـ لا أصدقك.

وأصغى جارد لصوته بشيء من الذهول. كان يحترق إحباطاً وغضباً ضد الرجل الذي جعلها تخاف هكذا.. هذه ليست هنريتا الحقيقية.. إنه يدرك هذا في أعماقه.. هنريتا الحقيقية مدفونة في قوقعة صنعها ذلك الرجل حولها. إنها شجاعة، واسعة الحيلة، وجريئة.. لقد شاهد بنفسه حقيقتها، مرات ومرات خلال الأشهر الأخيرة، حين تركت حرصها يتزحزح ولو للحظة.. ولن يستسلم من دون قتال.

ـ لا تحكمي على كل الرجال بما كان عليه زوجك هنريتا.

كان يتعامل مع الظلام، ولم يكن لديه أدنى فكرة عن أي ورقة يلعبها.

ـ ماذا؟

أحنت رأسها إلى الأسفل، ولكنها رفعته فجأة بحدة وتوترت. وأثبت ذلك لجارد أنه على حق، هذا كله بسبب ميلڤاين.

وأكمل: «مهما فعل، فهو غبي.. وأنا لست مثله.. لن أؤذيك».

هزت رأسها يأساً: «أنت لا تفهم.. مهما خطر لك، فأنت مخطىء».

قال بحدة: «اشرحي لي إذن.. اشرحي. قولي لي مما أنت خائفة؟».

ـ لا أستطيع..

كيف حصل كل هذا بسرعة؟ في لحظة كان يومها مثل أي يوم آخر. عندما ظهر جارد، تفجر عالمها.. وقطبت بعبوس بعد أن وخزها الذعر

الذي ولدته كلمات جارد.. يجب ألاّ تقفز الطيور فوق النهر.. ليس مع وجود مورفي.. مورفي.

ـ أين مورفي؟

وانقلبت معدتها رأساً على عقب: «مورفي!».

وصاحت مجدداً، لكنه لم يظهر.. فقفزت واقفة على قدميها، تدفع عنها ذراع جارد بوحشية.

وقف معها: «ما الأمر؟ لقد ابتعد ليستكشف، هذا كل ما في الأمر، سيعود بعد دقيقة..».

ـ لا يمكنه أن يستكشف.. السم.. هذا ما لا يستطيع أن يفعله.. أوه.. ساعدني جارد.. جده لي.

ـ السم؟

ـ ألم تتحدث إلى رون؟

ونادت مورفي مرة أخرى بصوت مليء بالذعر وعيناها تفتشان الضفة.

أدارها جارد إليه: «لقد عدت ليلة أمس.. وجئت مباشرة لأراك هذا الصباح.. ما الذي تقولينه عن السم؟».

شرحت له الموضوع بسرعة، وكلماتها تتعثر ببعضها، ومع تجهم وجهه تعاظم ذعرها.

قال بهدوء: «حسن جداً، استمري في مناداته. سأترك إيوني هنا.. سيعيقني أكثر مما يساعدني».

أمسكت بقميصه، وجذبته باهتياج: «إلى أين أنت ذاهب؟».

ـ آخر مرة رأيته فيها كان يركض هناك..

وأشار إلى حقل يبعد عن النهر.

ـ.. لذا سألحق بالنهر.

ـ سآتي معك..

قاطع صوتها المذعور بحزم: «لا. لعله يستمتع بوقته، وسيعود على

الأرجح عبر السهل.. إذا أردت فعل شيء سيري في الاتجاه المعاكس وتابعي مناداته.. وبهذا نغطي مساحة أكبر.. ولكن.. هنريبتا..».

أمسك بوجهها الشاحب، ونظر بعمق في عينيها المذعورتين: «إنّ احتمال أن يجد مورفي طريدة مسمومة ضئيل. وأنا أتفق مع رون.. إذا لم يبلّغ عن حالات جديدة في الأسبوعين الأخيرين، فهذا يعني أن الأمر انتهى. شخص ما ارتكب غلطة، وانتهت».

- قد يكون هناك بعض من السم في مكان ما.. أليس كذلك؟ أو شيء ميت أكل السم؟

أمسك ذراعيها وهزها بغير لطف: «توقفي عن هذا، فأنت لن تفيديه هكذا. هل تسمعيني هنريبتا؟ تماسكي وتابعي النداء. سيكون على ما يرام، أعدك. لا يمكن الحصول على السم إلا من كيميائي لديه ترخيص، وإذا كان أحد تعمد قتل الحيوانات الأليفة، فلن تصاب إلا بضعة كلاب.. وهذا ما لم يعلن عنه.. أنا واثق من هذا..».

هذا معقول.. معقول. وأجبرت هنريبتا نفسها أن تهدأ وتصغي.. لكن.. أين مورفي؟

- والآن.. ابدأي النداء، وسأعود إلى هنا بعد دقائق.. أواضح ذلك؟ وأبقي عينيك يقظتين.

- حسن جداً.

ثم، قبّل خدها بقوة.. قبلة تهدئة وطمأنة، وخاض في النهر إلى الضفة الأخرى، حيث انطلق راكضاً ينادي باسم مورفي.

سمعت هنريبتا إبوني يصهل، ويحفر الأرض خلفها. لكنها تجاهلته، واستدارت في الاتجاه المعاكس، وسارت بسرعة على ضفة النهر وهي تصيح لمورفي. يجب أن يكون بخير، يجب أن يكون.. لم يكن مورفي مجرد كلب بالنسبة لها، إنه عائلتها وتدين له بهذا القدر. فهو الذي أخرجها من جهنم اليأس بعد موت ميلفاين.. حبه وإخلاصه هو الذي أدفأها يوم أحست أن قلبها قد تجمد، صحبته هي التي خففت من اضطرابها حين

ظنت أنها لن تبتسم مرة أخرى.. مورفي.. مورفي.. أين أنت؟ إياك أن تنجرأ على أكل شيء.. إياك.

ثم سمعت جارد ينادي باسمها وعرفت فوراً.. ومع أنه لم يكن هناك رنة ذعر أو إنذار بخطر.. فقد عرفت أن شيئاً مريعاً حدث.

ركضت على طول ضفة النهر، وتوقفت بارتياح مع بروز جارد ومورفي يقفز بين قدميه. إنه بخير.. إنه بخير.. لكن لماذا يسير جارد بسرعة هكذا؟ ولماذا هذا التعبير الجامد على وجهه؟

نادت بارتباك: «ما الأمر؟ ماذا هناك؟».

خاض جارد في النهر المتدفق سريعاً وهي تكلمه، ولم يجب حتى وصل الأرض الجافة، وأخذ مورفي يرحب بها وكأنه غاب خمسة أيام لا خمس دقائق.

- لا شيء.. لا شيء ما عدا..

وصمت، ثم أكمل بهدوء يخفي قلقه: «كان يأكل شيء.. هذا طريدة ميتة من نوع ما، لكن لم يكن قد تبقى منها شيئاً حين وجدته».

رفعت هنريبتا رأسها وهي راكعة وذراعاها حول عنق مورفي. وسألت بضعف وهي تقف: «فأر؟».

واختار مورفي تلك اللحظة بالذات ليتقيأ بشدة.

قال جارد: «سآخذه إلى «مايفيلد» هنريبتا».

ومايفيلد هي العيادة البيطرية الكبيرة الموجودة في ضواحي أقرب بلدة على بعد عشرين ميلاً: «لنطمئن فقط».

- لكنه تقيأ..

- هذا جيد. لكن في حال كان ما أكله مسموماً، فإن القيء لا يكفي.. سآخذه إلى «مايفيلد» عبر الحقول.. يمكن أن أصل إلى هناك بعد بضع دقائق بينما يلزمنا أكثر من هذا في السيارة.. حين أصل سنعرف ما إذا كان هناك سبب للقلق.

قالت هنريبتا مذعورة: «لكنك لا تستطيع ركوب إبوني وحمل مورفي

معاً، فالجواد سيرميك عن ظهره.. الأمر خطير جداً».

أخذ وجهها بين يديه، كانت لمسته لطيفة وعيناه دافئتين، وقال: «هنريتا.. أنا متأكد أنه بخير، حقاً.. لكن لو حدث الأسوأ، فلن نعرف قبل وقت متأخر.. وليس لدينا خيار ولا وقت لنضيعه».

ولم تعتقد هنريتا للحظة أن مورفي سيسمح لجارد أن يحمله.. وكانت هذه مفاجأتها الأولى. أما الثانية فكانت امتطاء جارد وبيده الكلب الضخم ظهر الجواد، بسهولة. وقامت هنريتا بفك الرسن من جذع الشجرة واعطته لجارد.

وجلست هنريتا لبضع دقائق قبل أن تثق بأن ساقيها المرتجفتين قادرتان على حملها..

قال جارد إنه يحبها، وإن أنستازيا لا تعني شيئاً له.. ومورفي أكل شيئاً يمكن أن يكون مسموماً. كيف يمكن لعالمها أن ينهار في بضع دقائق؟ لقد ساورها هذا الشعور حين قتل ميلفاين أمام عينيها.. الإحساس ذاته من عدم التصديق والصدمة، ممزوج بالذعر والرعب.

ما إن وصلت الطاحونة، حتى وقفت لحظة في المطبخ، تنظر إلى سلة نوم مورفي وقصعة طعامه، وتمنت ألاّ تبكي.. سيكون بخير.. جارد معه.. ثم أخذت نفساً عميقاً لاهثاً وهي تعي ما عرفته لتوها.. واغمضت عينيها، ثم هزت رأسها.. لا.. لا تريد أن تضع ثقتها برجل مرة أخرى. لن تستطيع أن تتعلم الثقة برجل والاطمئنان إليه، ثم يتبين لها في ما بعد أنها أخطأت.. إنها تحب جارد.. تحبه حقاً.. لكن هذا لا يكفي.

فتحت عينيها، كان عقلها يملي عليها أن الأمر مع جارد لا يمكن أن يستمر، فهي تعرف ذلك في قرارة نفسها، ويجب أن تقوله له.

كانت تشرب فنجان القهوة الثاني ويداها ترتجفان، حين رن جرس الهاتف. وعلى الفور سمعت صوت جارد العميق الأجش، وقفز قلبها إلى حلقها.

ـ هنريتا.. إنه بخير. بما أنه هنا، يقترح جاكوب أن يبقيه لبضع ساعات، وستأخذينه الليلة.. هل يبدو لك هذا جيداً؟

عادت ساقاها للارتجاف: «هذا عظيم. شكراً لك جارد».

لن تبكي.. لن تبكي.

ـ ما من مشكلة.

ولاحظت تردداً بسيطاً، ثم قال: «سأزورك في طريق عودتي، لأعطيك المزيد من التفاصيل».

وكان في هذا التردد ما يكفي.. فقد جعله يبدو ضعيفاً وهذا ليس جارد فُنسنت الذي يعرفه العالم. وقبل أن تستطيع منع نفسها، قالت: «سأحضر الغداء إذا أحببت؟ سلطة ودجاج بارد وخبز فرنسي».

لقد قطع أميالاً، وهذا أقل ما تستطيع أن تفعله.

ـ عظيم.. سأعود إلى فورذرينغهام وأضع إيوني في الاسطبل.. وأجيء في السيارة. سأراك بعد حوالى الساعة.

ما إن وضعت هنريتا سماعة الهاتف حتى كادت تختنق.. تمتمت بصوت مرتفع وهي تعود إلى النافذة المفتوحة لتقف وتنظر إلى الخارج من دون أن ترى شيئاً.. «غبية.. غبية.. غبية» هذا تصرف غبي حقاً.. إنها لا تريد التورط مع هذا الرجل. لا تستطيع.. والآن سيظن.. حسن جداً، الأمر عائد إليها لتوضيح الموقف.. إنها ممتنة لمساعدته لها هذا الصباح.. لقد أثر بها، إنه مستعد لتغيير طريقة تفكيره في الحياة والحب.. لكن هذا مستحيل.. وهذه نهاية القصة.

أخذت نفساً طويلاً، وقد علت الكآبة وجهها، يجب أن تتصرف هكذا. إنه الشيء الوحيد الذي يمكنها أن تفعله.. فلماذا إذن تشعر بمثل هذه الرهبة؟ حين تفكر بطفولته، ووالده، والأمور التي شاركها بها، تشعر بالجبن والضعف.. وأنها لا يمكن أن تكون ما يستحقه.. وتملكها عذاب يائس. كيف سيؤثر عليه رفضها له؟ هل سيعود إلى حياته القديمة، ويصبح متهكماً وقاسياً أكثر؟ أوه.. لن تتمكن من تحمل هذا.

وهزت رأسها يائسة. لكن.. وجمدت، ليتصلب وجهها ويشتد عزماً.. لن يؤثر هذا على ما يجيش في أعماق قلبها. ولن تكون نافعة له وهي تحمل هذا الشعور. وعاجلاً أم آجلاً، وعلى الأرجح عاجلاً، سيصبح أكثر تعاسة معها، من العيش بدونها.

وصل جارد بعد منتصف النهار بقليل.. وما إن فتحت له الباب، حتى أعلمته لغة جسمها ووجهها أن عليه أن يخطو بحذر.

وأعطاها زجاجة عصير جاهز من دون أن يلمسها.

ـ أعتقد أن كلينا بحاجة إلى شراب بارد.

ـ شكراً لك.

كان صوتها حاداً وابتسامتها متصلبة وهي تكمل: «فكرت أن نأكل على الشرفة الخلفية.. لقد استخدمت طاولة النزهات والمقاعد الخشبية طوال الصيف الماضي».

كان جارد مسروراً للحديث عن أشياء غير هامة فهذا يعطيها الوقت لتسترخي.. ولحق بها إلى المطبخ، ثم أخذ منها كوبين وقليلاً من الثلج، وقال بسهولة: «سأحضر الشراب.. على فكرة.. مورفي يرسل لك حبه».

ـ يبدو المكان غريباً من دونه.

ونظرت حولها مبتسمة: «خاصة هنا. لطالما أعتقدت أن المكان هنا لا يخلو من الأشباح. مع أنها غرفة مريحة خلال اليوم».

ـ أعرف ما تعنين.

وابتسم لها.. عيناه الزرقاوان تلمعان وشعره الأسود قاتم كمنتصف الليل.. ومرة أخرى، قوة رجولته المدمرة، جعلت هنرييتا تشعر بالحرارة في أعماقها.. وعلقت نظرتاهما معاً للحظة لكن هنرييتا أبعدت عينيها عنه وأخذ جسمها يرتجف متوتراً. وتابع جارد بهدوء: «كان جدي يخبرني قصصاً عن أيام صباه وكان طحاناً في طاحونة «فراير». لطالما كانت الطاحونة جزءً من أملاك فورذرينغهام..».

استدارت هنرييتا إليه وهو يتحدث، ووجهها مهتم، وأشغل جارد نفسه بفتح زجاجة العصير وهو يتابع الكلام.

ـ وأنا كذلك.

كان يعي أنه يتحدث بصوت رتيب مهدىء، لكنه ناجح، فقد بدت مشنّجة حين دخل.

حملا الطعام إلى الشرفة الخلفية الصغيرة، وعلى عكس توقعاتها، وجدت هنرييتا نفسها قادرة على أكل الغداء، والتمتع به. جارد هو الرفيق الممتاز، مسترخ، مسلٍّ، ودّي، ولم يشر مرة إلى حديثهما قبل أن يفقدا أثر مورفي. في الواقع، لو لم تكن هنرييتا تعرف أكثر، لظنت أنها تخيلت الأمر برمته.

بعد الغداء جالت به في المشغل، وطرح عليها أسئلة ذكية أدهشتها.. وسألت: «لم أكن أعرف أنك مطلّع على صناعة الخزف؟».

رد بهدوء: «أنا لا أعرف.. أو الأحرى لم أكن أعرف.. قمت ببعض الأبحاث.. شخص ما أحبه، يتعامل مع الخزف بجدية كبرى، وأردت على الأقل أن أفهم شيئاً عن هذا، حتى وإن لم أكن موهوباً».

نظرت إليه، غير قادرة على التفكير بما تقوله لإبطال هذه اللحظة المشحونة. ورد إليها نظرتها بوجه متجهم، وجسمه الكبير الرشيق جامد تماماً.

أخيراً تمتمت: «لا تفعل شيئاً.. أرجوك جارد.. لا تفعل».

ـ لماذا؟

وعرفت أنه كان يمثل.

ـ لماذا.. هنرييتا؟ أنت تعرفين أن هناك شيئاً ما بيننا.. إنه موجود منذ اليوم الأول. ولقد قلت لك ما أشعر به.

ـ لا أريدك أن تشعر هكذا نحوي.

ـ لا أصدق.

وأدارها إليه لتواجهه، ورفع ذقنها بإصبعه ينظر إلى عمق عينيها.

كرر: «لا أصدق هذا.. قد لا تشعرين بما أشعر به، ليس بعد.. لكن عينيك تقولان لي ما تنكره شفتاك.. أنت تهتمين بي.. إلى أيّ مدى.. لست واثقاً، لكنك تهتمين بي هنريتا».

- لا...

- بلى.

وشدّها إليه، بذراعين ثابتتين قويتين:

- لا أعرف ماذا فعل بك زوجك أو لم يفعله، حتى أصبحت هكذا. لكنني لست هو ويجب أن تفهمي هذا هنريتا.

وازداد صوته عمقاً، وأصبح خشناً، مما أثار انتباهها.. وفضح صوته وهي بين ذراعيه إشارته، فقالت: «أعرف أنك لست ميلڤاين.. بالطبع أعرف. ولكن هذا لا يعني شيئاً».

رد بحزم: «إنه يعني كل الاختلافات الموجودة في العالم».

- لا.

وأحست بضربات قلبه تحت كفيها، وغمرتها رائحته الدافئة فأضعفتها.. وقاومت ما ينتابها بكل قواها، وأصبح صوتها خشناً: «أنا لا أريدك. أنا لا أحبك.. لا أحبك».

- ومن يتكلم عن الحب؟ يمكنني انتظار الحب.. يمكنني أن أكون صبوراً حين أضطر. اعترفي فقط أن هناك فرصة لنا.. افتحي قلبك وانظري إلى الحقيقة التي تتحداك.. يمكن أن نكون صديقين طالما أردت.. لكن، كوني صادقة مع نفسك.

ثم، وكأنما ليثبت سخف اقتراح الصداقة، ضمها إليه طويلاً، ضمة حلوة مليئة بالسعادة والمعاناة.. وأمام خجلها، واشمئزازها من نفسها، دنت منه أكثر، ولفت ذراعيها حول عنقه.. كان عناقاً حاراً بعث الدفء في جسديهما.

وفي جزء من عقلها، كانت متكدرة وحزينة. فقد أدركت أنّ تلك أفظع وأسوأ غلطة، بينما يداها تتعلقان بعنقه.

شعر بجسمها الناعم وهو يضغط على صدره القوي. وتحركت يداها من كتفيه إلى شعره الأسود المتموج، تشد رأسه بلهفة خرقاء بريئة، أثرت به حتى أعماقه.

لم يكن جارد يتوقع هذه الشعلة من نار الحب.. ولا هذه الاستجابة الغامرة.. وعرفت أن هذا يجب أن يتوقف.. عرفت أن هذا الجنون يجب أن ينتهي. لكنها بين ذراعي الرجل الذي تحبه.. وليس للمنطق طريق.

همس: «ستكون بداية جديدة لنا معاً.. نمسح فيها الماضي.. ونواجه المستقبل نحن الاثنان فقط..».

ابتعادها العنيف عن ذراعيه فجأة، وشهقتها المصدومة، فاجأت جارد تماماً.

- هنريتا؟

ورأى أن عينيها متسعتان خوفاً.. وبغضب متولد من خيبة الأمل أمسك وجهها: «ما الأمر؟ يجب أن تقولي لي».

أجل.. يجب أن تقول له، نظرت إليه عبر المسافة القصيرة التي تراجعتها لآ ذعرها، وهي تعرف أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يفهمها.. وبعد أن يدرك مدى فشل العلاقة بينهما، سيتركها وشأنها.

على عكس وجهها، كان صوتها كليلاً وهادئاً: «حسن جداً.. سأقول لك.. لكن.. لكن ليس هنا».

مشغلها ثمين، إنه مكان عملها، ومحبتها، ولا تريد أن تقرع ناقوس الموت هنا، لئلا تتصور في الأيام القادمة هذه اللحظات الأخيرة في ملاذها الآمن.

- في الخارج.. حول الطاولة.

ما إن جلسا مرة أخرى، وعيناه ثابتتان عليها، حتى استجمعت هنريتا كل ذرة شجاعة تمتلكها، وبدأت الكلام.. وأخبرته كل شيء: الحياة المنزلية السعيدة قبل موت أبيها، قلقها على أمها في السنوات التالية، حياتها الاجتماعية الخالية من المغامرة قبل أن تلتقي بميلڤاين وأيام غرامها

المثيرة.

ـ ثم تزوجنا.

كانت هذه جملة بسيطة.. لكن عيني جارد ضاقتا لتصبحا كشعاعين من نور أزرق.

وحثها بلطف: «و..؟ ما الذي حدث هنريتا؟».

ـ لقد انقلب زوجي إلى شخص آخر.

وارتجفت، وأغمضت عينيها.. ثم تابعت: «لقد بدأ هذا في شهر العسل. كان هناك نادل في الفندق.. قال ميلڤاين إنه يحدق بي وأنني شجعته.. لكنني لم أكن قد لاحظت وجود الرجل. كنا في شهر العسل بحق السماء».

وابتلعت ريقها بعمق: «لكن هذه مجرد البداية.. كان مهووساً بي، وهذه هي الطريقة الوحيدة لوصف حاله. وتحوّل إلى الغيرة المجنونة، يعذب نفسه ويعذبني باتهامات وتهديدات..».

وهزت رأسها ببطء: «منعني عن أصدقائي.. وانتقد طريقة لبسي، طريقة تسريح شعري، زينتي.. ولم يرغب في أن أعمل لأن هذا يعني أن أتصل بالناس.. بالرجال. كان يقول لي دائماً إنني نحيلة جداً، وإن عملي ليس جيداً بما يكفي لأعرضه.. وإن لا جدوى مني في الفراش.. أي شيء ليجعلني أعتمد عليه أكثر.. أراد.. أن يسيطر على كل ما أفكر به، وعلى عملي.. و.. وبدأ ينجح، وأصبحت مشوشة.. وبدأت أصدق أن كل هذه أخطائي».

سألها جارد بنعومة: «أولم تخبري أحداً؟».

وتمنى لو بقي دقيقتين فقط مع هذا المستبد حين كان حياً.

ـ أمك.. سارا.. صديقة؟

رفعت عينين حزينتين إلى عينيه: «حاولت.. لكن كان عليك أن تعرف ميلڤاين لتفهم. كان لطيفاً جداً، دافئاً جداً، ومرحاً مع الجميع. ولقد أحبني.. كان الجميع يتحدث عن حبه لي.. وهذا صحيح..

بطريقته الخاصة».

أبعد كل عاطفة عن صوته: «هذا لم يكن حباً هنريتا.. ومهما كان.. ليس حباً. وأعتقد أنك كنت الأقرب في وصفه حين قلت إنه نوع من الهوس».

ـ على أيّ حال، واصلت الكفاح من أسبوع إلى أسبوع، ومن شهر إلى شهر.. ثم.. ثم تمادى كثيراً حتى في نظري، وأنا المشوشة المرتبكة.. قال إنه يريدني أن أجري عملية جراحية.

قطب جارد: «عملية جراحية؟ أنا آسف.. لم أفهمك؟».

وكان هذا أصعب جزء من القصة كلها.. الجزء الذي لا تعرف كيف تقصه وهو ينظر إليها بثبات. وقفت هنريتا، وأدارت ظهرها نحوه، وهي تنظر بعمى إلى الحقول الممتدة وراء الطاحونة.

قالت، بصوت أمرّ من واقع مؤلم: «عملية عقم.. كان يقول دائماً إن الماضي لا وجود له.. وإننا وحدنا، ولا أحد غيرنا يهم.. وعذره أن طفلاً سيتدخل بيننا».

وجد جارد نفسه مشلولاً بالصدمة لجزء من الثانية، ثم تذكر الكلمات التي تمتم بها منذ دقائق وتأوه في أعماقه. لكنه حين قال إن الماضي مُسح وأنهما سيواجهان المستقبل معاً، لم يكن يعني مثل هذا الرجل المجنون.. اللعنة.. ورغب في أن يضع رأسه بين يديه ويتأوه عالياً، لكنه كبت نفسه.. يجب أن تفهم هذا.. يجب أن تفهم. لكن قبل أن يستطيع النطق، تكلمت هنريتا مجدداً:

ـ وقاومت طبعاً.. وتابعت المقاومة.. وحدد الموعد للاستشارات الأولى من دون علمي. وحين جاء إلى البيت وقال لي ذات ليلة.. تشاجرنا.. شجاراً كبيراً.. وحطم لي كل أعمالي ورسوماتي، وكانت هناك لوحة لأبي تعني لي الكثير..

تهدّج صوتها.. لكن حين وقف جارد استدارت إليه، ويداها مرفوعتان، وكفاها يواجهانه.

ـ لا.. أرجوك.. استمع فقط.. أرجوك جارد.

هز رأسه بصمت موافقاً.. وكان وجهه شاحباً مثل وجهها.. وبعد أن غاصت في المقعد الخشبي، تابعت كلامها بصوت ضعيف: «كنت خائفة.. اعتقدت حقاً أنه سيؤذيني، فهربت من الشقة إلى الشارع. ولحق بي.. وكان يبكي آسفاً.. إنه يأسف دائماً بعد كل شجار..».

وابتلعت ريقها عدة مرات: «كنا نسير عائدين إلى البيت حين وقع الحادث».

هز جارد رأسه ببطء.. إذن هذه هي القصة، ويا لها من قصة.. يا لها من فوضى.. اللعنة! وجاهد وجهه من دون تعبير.. ماذا يمكنه أن يقول بعد هذا؟

ـ هنرييتا.. كان الرجل مريضاً.. وتعرفين هذا، أليس كذلك؟

أراد أن يتقدم إليها.. أن يأخذها بين ذراعيه، ويضمها إليه بقوة أكثر مما ضم أي إنسان من قبل.. إنما لم يكن الظرف ملائماً.

أكمل: «كان يحتاج إلى عناية طبية من اختصاصي.. إلى طبيب نفسي».

ـ قلت هذا.. حين أخبرت أمي ودايفد، قلت لهما هذا.. لكن..

وهزت رأسها بعجز: «.. بدا أن الجميع يعتقد أنني أبالغ، وأننا نمر في مرحلة عدم استقرار يمر بها أي زوجين جديدين، ورفض ميلفاين الذهاب إلى طبيب.. فالغلطة غلطتي.. أفهمت؟».

قال: «فهمت أنك مررت في الجحيم.. لكن ليس كل الرجال متماثلين.. وهناك قصص زواج ناجحة في أمكنة أخرى».

وصدمه أنه لو سمع مثل هذا القول قبل ستة أشهر، لضحك ملء شدقيه.

ـ ربما.

ـ لا.. ليس ربما.. إنه واقع مؤكد.

هزت رأسها وهي تضيف: «جارد.. قد تكون على حق.. لكنني لا

أصدق، ليس بالنسبة لي على الأقل».

ـ سأجعلك تصدقين..

ـ لا.

وكان صوتها متجمداً بالخوف وهي تقاطعه قبل أن يقول المزيد.

ـ أنا لا أريد أن أصدق.. لا أريد أن أخاطر. لقد عادت حياتي لي الآن، وهذا أمر ثمين.. أثمن مما يمكن أن تعرف. لا أريد المخاطرة بأن تبدأ في التغيير.. وأن تحاول امتلاكي..

ـ لكن الأمر لن يكون هكذا.

كان صوته مرتفعاً جداً. وكادت سيطرته على نفسه تتلاشى.. وأجبر نفسه على أخذ نفس عميق قبل أن يكمل بهدوء أكبر: «لن يكون الأمر هكذا. ثقي بي.. أنا لست مثل ذلك القذر.. وأنا أحبك».

تطلعت إليه بعينين متباعدتين: «ولقد أحبني ميلفاين.. ووثقت به».

يمكنه أن يتكلم إلى أن يرهق، ولن يشكّل هذا أي فارق.. كان يعرف هذا، لكنه لم يستطع إلا أن يحاول مرة أخرى.

ـ أستطيع فهم شعورك، ربما أفضل من غيري.. لكن، فاتك عنصر هام جداً يمكن أن يشكّل كل الفرق. أنت منجذبة لي.. وهذه بداية.. بداية جيدة.

وابتسم، من دون أن يرى رداً في وجهها الشاحب: «.. لكن، حين تعتادي على حبي، سيصبح الأمر بسيطاً».

قالت هنرييتا بحزم، جعله يغضب بشدة: «ليس هناك أيّ فرصة لأن أشعر بأي فارق».

صاح بتوتر: «بل هناك فرصة.. سأجعلك تحبينني.. اللعنة. هناك شخصان في هذه المعادلة، فلا تعامليني كطيف وهمي في ماضيك».

وقفت ببطء، وقالت بصوت منخفض جداً: «أنت لا تفهم.. أنا أحبك. وأعتقد أنني أحببتك منذ زمن بعيد مع أنني لم أدرك هذا حتى

وقت متأخر. وسيبقى شعوري على حاله، أعرف. لكن لا فارق في قراري.. لا أريدك في حياتي».

راقبت هنريبتا تأثير كلماتها على وجهه المعذّب. لكن، يجب أن تكون قوية. وبدا جارد كأنه تلقى ضربة على معدته.. لكن لو ترددت الآن، لو استسلمت للرغبة الخطرة في مدّ ذراعيها وأذعنت لهذا الرجل المعقد، البسيط، القوي، اللطيف، لن تعرف لحظة سلام.. إنه شديد الفتنة، شديد الجاذبية، شديد القوة، أجل، إنه يشبه ميلڤاين كثيراً.

سألها متجهماً بعد دقيقة من الصمت: «إذن، حكمت علينا معاً بحياة بائسة».

رفعت ذقنها متحدية: «إذا كنت تريد النظر إلى الأمر هكذا.. لكنني أفضل أن أقول إنني أوفر علينا هذا المصير، سوف تلتقي..».

قاطعها بصوت متوحش صدمها: «لا تقولي هذا.. لا تقولي إنني سألتقي بامرأة أخرى هنريبتا، وإلا فلن أكون مسؤولاً عن تصرفاتي».

حدّق بها بعينين غاضبتين ووجه شاحب.. ثم استدار ليتوجّه إلى حيث أوقف الرانج روڤر.

راقبته هنريبتا يذهب وهي مخدرة الأحاسيس. لكن ساقيها المرتجفتين وقلبها الخافق، أقنعتها أن هذا يحصل حقاً. إنه ذاهب.. حقاً راحل.. وتلك النظرة السوداء الغاضبة الأخيرة قالت لها بصراحة إنه لن يعود.

وسمعت محرك الرانج روڤر يدور، ورأته بعد لحظة يتجه صعوداً في الدرب المعبّد، وكأن الشيطان بذاته يجلس وراء المقود، ثم ساد الصمت.. صمت عميق.. حتى الطيور سكنت، وكأنها عرفت أن أمراً جللاً قد حصل.

لقد رحل، وتهاوت هنريبتا على المقعد الخشبي الذي أدفأته الشمس.

رحل.. ألم يكن هذا خطأها؟

* * *

٩ ـ من أقوى: هي أم الحب؟

كان مورفي مسروراً جداً لرؤية هنريبتا حين وصلت إلى العيادة البيطرية، فساهمت بهجة الحيوان الضخم، في التخفيف من خيبة الأمل، وحدة الالم اللذين تملّكاها وهي تنظر إلى الرانج روڤر تبتعد..

انتظرت طوال ذلك المساء اتصالاً هاتفياً، لم يأت أبداً.. وفي اليوم التالي، وبعد بضع ساعات من النوم، كانت متوترة الأعصاب، لكنها بقيت تقول لنفسها، مرات ومرات، إنه لن يأتي.. ولم يأت.

ومع نهاية الأسبوع، استسلمت هنريبتا لواقع أن ما لم يحدث.. قد انتهى.. وهذا ما أرادته.. بالضبط.

وفي منتصف الأسبوع التالي، قررت أن تذهب لتتبادل الحديث مع سارا. وعندما وصلت إلى منزل دايڤد وسارا الأنيق، كادت تهوي لشدة التعب..

كانت سارا بانتظارها، وأحست هنريبتا بعقدة الذنب لبهجة زوجة أخيها الواضحة لزيارتها المفاجئة.. لكن بعد أن استقرتا في الحديقة مع كأسين كبيرين من عصير البرتقال المثلج، أشارت سارا إلى سبب زيارة هنريبتا.

ـ إذن.. ما الذي جرى بينك وبين جارد؟

ـ ماذا؟

وبدت هنريبتا خائفة إلى حد ما، وابتسمت سارا إشفاقاً. وقالت

بهدوء: «أوه.. يمكن للأعمى أن يرى هذا».

ـ حقاً؟ لكنني لم أكن أعرف يومها.. حقاً. ولا جارد بكل تأكيد.

حثتها سارا بحذر: «لكنكما تعرفان الآن».

ـ أجل.. لكن هذا لا يعني شيئاً.

بدا لهنريتا أن أي شخص يصغي لحديثهما سيظن أنهما تتحدثان بالرموز.

سألت سارا باهتمام: «ومن الذي فترت حماسته؟ هل حصل هذا لكما معاً؟».

ـ لا.. أنا فقط.

وأخذت هنريتا رشفة طويلة من العصير المثلج، ونظرت إلى مورفي المستلقي عند كاحليها.

ـ مجازياً.. بالطبع.

تراجعت سارا في مقعدها وعدلت قبعتها الواقية من الشمس فوق عينيها.

ـ حسن جداً.. أخبري العمة سارا.

تركت هنريتا الأشياء الحميمة بعيداً، واكتفت بجوهر الموضوع، وحين انتهت كانت سارا تجلس على حافة مقعدها، وجهها الجميل متجهم عابس. وتنهدت بصوت مرتفع.

ـ أكره أن أقول ذلك، لكنه على حق تماماً، وأنت مخطئة مائة بالمائة.

قالت هنريتا بصوت جاف جداً: «لا تتلاعبي سارا. قولي ماذا تعنين».

ـ اسمعي.. أعرف أن حياتك الزوجية كانت بائسة. وأستطيع أن أفهم قلقك.. لكنه لا يطلب هذا.. ألا ترين؟ قال إنه سيعطيك الوقت.. فما غير هذا يمكن للمسكين أن يفعله؟

وكانت تقطيبة هنريتا مشاكسة: «لا أريد وقتاً».

ـ إذن.. لماذا أنت هنا؟ إذا كنت واثقة أنك اتخذت القرار

الصائب.. فلماذا تناقشين الأمر الآن؟

ـ أردت فقط أن أحدّث أحداً، وهذا كل ما في الأمر. وأردت الابتعاد عن العمل، فهو لم يكن جيداً.

وكان هذا غريباً.. فسارا تعرف كم تتمتع هنريتا بعملها عادة.. وأضافت بضعف: «السبب هو الطقس الحار».

أفرغت سارا كأس العصير: «دعيني أملأ كأسك، ثم نتكلم أكثر».

لكن، ما إن عادت سارا من المطبخ، حتى قررت هنريتا ألاّ تتطرق إلى موضوع جارد. لقد قررت أن تتهرب من الحقيقة، وستعتبر اليومين القادمين فرصة راحة تحتاج إليها كثيراً مع عائلتها.. ثم ستعود بنشاط متجدد ولو قتلها هذا.

لكن سارا لم تكن مستعدة لترك المسألة. وتفادت الأسئلة التي طرحتها هنريتا عن الأولاد، قبل أن تقول: «أنت وجارد.. هل لي أن أقول شيئاً بما أنك أخرجت هذا الموضوع إلى العلن؟».

اعترضت هنريتا باعتدال: «تجعلين الأمر يبدو وكأنني كنت أعمل سراً».

ردت سارا: «حسن جداً.. ألم تفعلي هذا؟ على أيّ حال، أعتقد أننا نوافق على أن جارد قُنسنت ليس الزوج العادي الذي تفكرين به.. صحيح؟ لكنك لست هكذا أيضاً.. منذ أول مرة رأيتك فيها عرفت أنك مختلفة، وأنك تريدين من الحياة أكثر من عمل ثابت ورجل لطيف يعود إلى البيت قبل أن تبدأي بإنجاب عائلة.. هذا الجزء الإبداعي منك هو الجزء الحقيقي.. أليس كذلك؟ جزء كبير؟».

قالت هنريتا بارتباك: «أجل.. لكن ما دخل هذا في ما يجري؟ لا أرى ماذا تقصدين».

ـ جزء من مشكلتك مع ميلقاين كان أنكما فنانان. أعرف أنه كان غريب الأطوار.. لكن لم يساعدكما أنكما فنانان، وجارد ليس كذلك. لديه عمله الخاص الجيد، وسيكون راضياً تماماً أن تقومي بعملك كذلك،

وستتناسبان معاً بشكل جيد. إنه سيد نفسه. لا يحتاج إلى إثبات أي شيء لأي كان، ولديه ما يكفيه.

نظرت هنرييتا إلى وجه سارا الجاد، وقالت: «يبدو أنك تعرفين الكثير عن الأمر».

هزت سارا كتفيها: «ليس حقاً.. أجرت أمك حديثاً جيداً معه، ولقد أعجبها.. ودايڤد يعتقد أنه الأفضل لك».

ذكّرتها هنرييتا بهدوء: «وكلاهما اعتقدا أن ميلڤاين رائع.. على أيّ حال.. فهمت وجهة نظرك سارا. لكن هل لنا أن نتكلم عن ثمن الخبز أو أي شيء آخر الآن؟».

ـ بالتأكيد.

وضحكت سارا بينما ابتسمت هنرييتا لها وأمضت المرأتان وقتاً ممتعاً معاً إلى أن عاد دايڤد إلى المنزل.

توقف دايڤد على عتبة باب المطبخ حيث كان الجميع يشرب الشاي: «.. لم يكن لدي فكرة أنك قادمة.. هل اتصلت بك أمك؟».

وقطبت هنرييتا جبينها، وسألت بدهشة: «أمي؟ لا.. هل كان عليها أن تتصل؟».

ـ لا.. لا.. أبداً.

وبدا فجأة غير مرتاح.

ـ في الواقع، اتفقنا ألاّ نتصل بك.. لم نتفق على هذا بالضبط، لم يكن ضرورياً أن نتفق على شيء.. لكننا اعتقدنا أن هذا أفضل.

قاطعته هنرييتا: «دايڤد.. عمّ تتكلم؟ أعتقد أن هناك ما يجب أن أعرفه.. أو لا أعرفه؟».

ونظرت إلى سارا ثم إلى أخيها الذي قال: «لا.. بلى.. أعني..».

قالت سارا بصوت جاهدت أن تكبت المرح الذي غلّفه: «أعتقد أنك نسفت كل شيء دايڤد، وليس الأمر سراً على أيّ حال. ستقلق هكذا.. فقل لها بحق السماء.. ودعنا نستريح».

ـ يقول لي ماذا؟

قال دايڤد بحذر: «إنها مهمة عرضت علينا. هذا كل ما في الأمر لكنها مهمة كبيرة جداً.. وإذا استطعت إنجازها..».

وارتفع صوته إثارة، وأنهى كلامه: «حسن جداً.. لن تتطلعي بعدها إلى الوراء».

ـ نعم؟ ما هو اللغز إذن؟

ـ إنه «ڤيزاج»، النادي الصحي الجديد الذي يتكلم عنه الجميع والذي سيكلفك ثروة مجرد أن تقربي أنفك من الباب، وهو حصري لأصحاب الملايين.

صمت دايڤد، ثم أكمل بلهفة: «حسن جداً.. إنهم يريدونك أن تقومي بصنع منحوتة حية.. ولقد وصل تأكيد للمعرض بالأمس، وهم على استعداد لدفع أي ثمن للشخص المناسب، ويظنون أن هذا الشخص هو أنت».

وأشار بيده إلى كمية من المال فكادت هنرييتا تقع عن كرسي المطبخ المرتفع.

سألت، بالكاد تصدق ما تسمع: «وما هو؟ هل أستطيع أن أقوم به؟».

إنها تعرف على الأقل مئة فنان قد يسعى للحصول على هذه المهمة.

ابتسم دايڤد لها متحمساً: «ما من مشكلة. إنهم يريدون ما يشبه شلال في فناء فسحة الاستقبال، سلسلة شلالات صغيرة حيث تصب المياه من وعاء خزفي إلى آخر. ويجب أن يكون هناك مكان لبركة صغيرة في مكان ما، مع زيوت طبيعية، وعطور».

نظرت هنرييتا إليه بلهفة: «أوه دايڤد.. دايڤد».

ـ معظم العمل التحضيري سيتم في الطاحونة.. ولن تحتاجي أن تكوني في لندن إلا بين حين وآخر. يسرّهم أن تبدأي العمل بعد بضعة أشهر، وبعد أن تنهي التزاماتك الحالية.. فكري بالدعاية فقط.

سألت ببطء: «إذن.. لماذا الغموض الكبير؟ ماذا هناك بعد لم تخبرني به؟ هناك المزيد.. أليس كذلك؟».

- لا شيء محدد حول المهمة حقاً، على الأقل..

- دايڤد.. قل لها.

وكان صوت سارا لا يحتمل الجدال: «لا شيء حقاً.. لكن حين كنت أفاوض، اضطررت لإبقاء الأمر سراً إلى أن يتأكد العرض. مع ذلك، كان يفضل ألاّ تعرفي.. أمي وأنا مختلفان على هذا. تعتقد أنه يجب أن تعرفي، وأنا أشعر أنه إن لم يكن يرغب في أن يذيع علاقته بالأمر فهذا عدل بما فيه الكفاية».

لم تعد هنريتا تستطيع أن تتحمل: «دايڤد.. عمن تتحدث؟».

- إنه جارد ڤنسنت.

نظرت إليه مشدوهة: «ماذا؟».

- جارد هو الرجل الذي وضع اسمك أمام مجلس الإدارة، إنه في مجلس إدارة مجموعة «ڤيزاج».. وتعرفين أن المجموعة تبني مراكز الراحة ومنتجعات النساء في كل البلاد. و..

قاطعته بإحساس متخدر: «أعرف ماذا يبنون دايڤد».

- اعتقد أنك لو عرفت أن له علاقة بالأمر، فستظنين أنك لم تحصلي على المهمة بجدارتك، وأكد لنا أنك جديرة. وهو ذكرك فقط أمام المجلس، وأجروا تحقيقاً، وأعجبوا بعملك، وكانوا على استعداد لتقديم العرض لي كوكيل لك.

قالت ببطء: «لكنهم ما كانوا سيعرفون بي لولاه.. صحيح؟ ولو لم يدافع عني، لم تكن مجموعة مثل ڤيزاج لتخاطر مع مجهولة مثلي.. كان يمكن أن يكلفوا شخصاً مشهوراً».

هز دايڤد كتفيه: «ربما.. لكن كل إنسان يصبح مشهوراً في اللحظة المناسبة.. وهذه فرصتك».

ومن خلال جارد ڤنسنت؟ الذي لم يشأ أن يعلمها أنه طرف في

الموضوع، جارد الذي أحب عملها لدرجة أنه يستخدم ثروته الآن بدلاً من فمه.

سألت بهدوء، وقلبها يخفق بألم: «تقول إنك تلقيت التأكيد بالأمس؟».

- أجل.. لقد اجتمع مجلس الإدارة في اليوم السابق لاتخاذ القرار الأخير.

وأخذ دايڤد ينظر إليها بشكل غريب، ولم تستطع لومه، واضح أنه يتوقع منها أن تقفز وتصرخ فرحاً.. وها هي مسمّرة مكانها.. منذ يومين.. كان بإمكان جارد أن يزورها في أي وقت منذ فراقهما الكارثي.. لكنه لم يفعل.. لم يفعل.

ولاحقاً، في الليل وهي مستلقية في الغرفة الصغيرة راجعت حديثها مع سارا ودايڤد مراراً وتكراراً إلى أن أخذ رأسها يضج ألماً.

كان هذا أمراً جيداً منه.. رائع أن يفعل هذا، وهي ممتنة له أكثر مما سيعرف يوماً، لكن.. هل كان تصرفه هذا وسيلة لهدف محدد؟ هل عرف أنها ستكشف دوره في كل هذا؟ لقد صدقته حين قال إنه يريدها، وحتى إنه أحبها.. لكنها لا تثق بطبيعة الحب ذاتها. وستبقى تحبه، وتصدقه، مهما كانت الحياة كئيبة من دونه ومهما ذرفت من دموع.

الحياة فعلاً كئيبة.. وأحست بالوحدة.. وحيدة محطمة بائسة، لكن هذا كله لا يكفي للمخاطرة. وأغمضت عينيها بشدة، وأخذت تتنفس ببطء مع إطلالة ذعرها القديم.. لو لم تنجذب بمثل هذا العنف إليه منذ البداية، ولو أنها لا تحبه الآن، لحاولت اختبار الأمر. لكن إحساسها نحوه، يعطيه سلطة عليها أكبر.. ولهذا السبب يجب أن تكون قوية، وسيتحسن بؤسها.. ستكون أفضل حالاً.. مع الزمن.

لكنها ستكتب لجارد.. أو تتصل به لتشكره. لتقول له شكراً، لن تذهب لرؤيته.. إنها ليست قوية إلى هذا الحد.. لكن عليها التعبير عن شكرها شخصياً.. إنها مدينة له بهذا على الأقل.

استلقت هنريتا ترتاح بهدوء ما إن اتخذت القرار.. لا خيار آخر أمامها.. وهذا أفضل شيء لجارد ولها.. لا يمكن أن تضعف..

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد الظهر حين دخلت هنريتا في اليوم التالي إلى المعرض، وذراعاها بذراع أمها وذراع أخيها بعد أن خرج الثلاثة لتناول الغداء احتفاءً.

للحظة، لم يلاحظوا الرجل الطويل الأسمر، الواقف إلى جانب النافذة البعيدة، خلف نبتة سرخس عملاقة.. وقالت ياسمين، مساعدة دايڤد: «أوه.. سيد نواك.. هذا السيد ينتظرك منذ دقائق».

واستدار الجميع، وراقبت هنريتا أمها وأخاها يتابعان التقدم إلى الأمام، في حين بقيت هي مسمّرة في مكانها.. ساورها ارتياح فوري.. وهذا أمر سخيف نظراً للظروف. بدت بأفضل حال في فستانها الأبيض، أنيقة وذات أنوثة، قبل أن يقول جارد ببرود وعيناه تتجاوزان رأس الأم والأخ: «مرحباً هنريتا».

ـ مرحباً.

لم يكن يعرف أنها في لندن، واستطاعت أن تكتشف هذا من عينيه الزرقاوين قبل أن يوجه نظره إلى الاثنين الآخرين. لكنه كان يتعامل مع الموقف أفضل منها بكثير، وأخذت ترتجف وهي تراقب اتزانه الهادىء، وصوته المهذب المحافظ وهو يجيب على كلمات أمها المتدفقة.. وبدا رائعاً.. متعباً، هناك ظلال سوداء تحت عينيه، لكنه رائع.

قامت هنريتا بأكبر جهد في حياتها لتتماسك وتقطع المسافة التي كادت لا تنتهي بينهما. وتكلمت بسرعة حين صمتت أمها، وقالت بحدة: «أريد أن أشكرك جارد.. لذكري أمام مجلس إدارة «فيزاج».. إنها فرصة رائعة».

كان صوته عميقاً منخفضاً: «من دواعي سروري».

وارتجفت في داخلها، وسأل بهدوء: «تعرفين إذن؟».

ونقل نظره منها إلى دايڤد رافعاً حاجبيه.

فاعترف دايڤد بارتباك: «أنا آسف.. إنها غلطتي، لست بارعاً في كتم الأسرار».

قال جارد بهدوء: «لا يهم.. كنت أمرّ من هنا وزرتكم لأن هناك بضع نقاط أود مراجعتها إذا كان لديكم الوقت؟».

ووجه كلامه مباشرة إلى دايڤد.

وكاد دايڤد يرتبك في تلهفه: «بالطبع. دعنا ندخل المكتب.. هل ترغب في القهوة؟».

وأشار بيده إلى ياسمين. فابتسم جارد للفتاة الصغيرة: «أرجوك.. سوداء».

واستدار إلى هنريتا وأمها بهزة رأس مهذبة وقال بسهولة: «عمت مساء سيدة نواك.. سرّني أن أراك مجدداً هنريتا».

إنه يبتعد عنها.. إنه مغادر.. ولم تستطع هنريتا تصديق أو فهم الأحاسيس التي جاشت داخلها، وكان صوتها مرتفعاً جداً حين قالت: «ألا تريدني أن أجلس معكما؟ لا بدّ أن هناك بعض الأمور التي تود مناقشتها معي إذا كنت أنا من سينفذ العمل؟».

واستدار الرجلان.. وجه دايڤد مذعور لسماع رنة صوتها.. ووجه جارد غامض.. ثم نظر جارد إليها مباشرة، وعيناه لا تعبير فيهما، وصوته بارد.

ـ لا.. أنا لا أحتاج إلى بحث شيء معك هنريتا، أنا أعرف تماماً موقفك.

وسمح بصمت قصير قبل أن يضيف: «هذا النقاش يتعلق بالجانب المالي من المهمة.. ولا علاقة له بأي شيء إبداعي».

ـ أوه.. أجل.. طبعاً. أنا آسفة..

أحست هنريتا أنها أصغر من الذرّة، ولا بد أن وجهها عكس هذا الإحساس لأن وجهه استرخى قليلاً، والتوت شفتاه وهو يقول: «يحق للفنانين أن يحموا مصالحهم. لكن تأكدي أن المنحوتة، ستكون كما ترينها

مناسبة.. وسأتأكد من هذا بنفسي».

أحنى رأسه مرة أخرى واستدار فجأة، لكنها أبصرت لمعاناً أسود في عينين قويتين للحظة توقف فيها قلبها. ووقفت ساكنة عندما اختفى الرجلان في الممر وتسارعت دقات قلبها وكأنه قلب عصفور خائف، ودار رأسها تحت تأثير تلك النظرة. للحظة، أحست وكأنها حيوان صغير أطبق عليه فخ فولاذي فيه لا حول له ولا قوة.

لكنها لم تكن عاجزة.. ومنعت أطرافها من الارتجاف.. ولم تعلق في فخ كذلك. بل على العكس، فقد أوضح جارد اليوم أنه قبل بقطعها أي تواصل بينهما.. فهو لم يطل أمد الحديث، ولم يقترح أي لقاء بينهما بعد مناقشته مع دايڤد.. وأمسكت بأفكارها، غاضبة من التناقض الذي يجعلها تشعر بالاستياء حيث يجب أن تشعر بالارتياح.

عضت بشدة على شفتها السفلى، وشدت يديها في قبضتين قويتين، قبل أن تدرك أن أمها تنظر إليها بتعبير غريب على وجهها: «هل من خطب ما.. حبيبتي؟ هل تشعرين بالتوعك؟».

ولم تستطع هنرييتا أن تبتسم.. لكنها أجبرت شفتيها أن تتحركا بما يشبه الاعتذار: «أنا بخير.. ويجب أن أذهب الآن. لقد وعدت سارا أن أشتري شيئاً للأولاد لأوفر عليها المشقة».

ـ حسن جداً عزيزتي.

وكان صوت ساندرا نواك طبيعياً، لكن عينيها كانتا متفهمتين جداً وهي تكمل: «اهربي الآن».

تراجعت هنرييتا إلى الباب وعلى فمها ابتسامة واهنة. جارد ڤنسنت خصم مخيف لا يجب أن تعبث معه.

وجدت هنرييتا أن الظهيرة تمر ببطء شديد، ولم تعترف بسبب توترها وتململها حتى جاء دايڤد.. وحيداً... ثم ما لبثت أن شعرت بالضيق مع إعلان دايڤد مبتهجاً أنه دعا جارد للعشاء معهم.

ـ فكرت أن من المفيد تكرار تلك الأمسية في نيسان.. أتذكرين؟ لكن

جارد رفض، محتجاً بارتباط مسبق.

«ارتباط مسبق» ولاحقت الكلمتان هنرييتا طويلاً.

ماذا يعني الارتباط المسبق بالضبط؟ طرحت السؤال على نفسها بذهن متبلد، متلذذة بتعذيب نفسها.. هل يعني عشاء عمل مع زميل؟ مع زميلة؟ ليلة مع أصدقاء.. أمسية في الأوبرا أو المسرح مع مجموعة أصدقاء.. أم... وهنا انقلبت معدتها وغمرها إحساس بالغثيان.. موعد حميم لاثنين في مطعم مكلف رائع ودافىء.

يجب أن توقف أفكارها.. وبسرعة كيفت أساريرها إذ لا يحق لها أن تعترض على ما يفعله جارد إطلاقاً.

عادت هنرييتا إلى هيرفورد شاير في اليوم التالي، ورمت نفسها في عملها بإخلاص وعزم عنيدين.

ولم يكن من المدهش أن تشعر أنها فريسة أنفلونزا صيفية شنيعة، في منتصف شهر آب وخلال موجة حرارة. كانت الأنفلونزا تكتسح الريف بقسوة مدمرة. وأحست ببعض التعب وفقدان اللون قليلاً في البداية، لكن حين زارها رونالد في إحدى زياراته شبه اليومية، كان الوصول إلى الباب الأمامي عملاً بطولياً.

شعرت أنها مصابة بدوار يائس. وما إن غادر رونالد، حتى تهادت إلى غرفة الجلوس حيث انهارت على الأريكة وأغمضت عينيها.. ولا بد أنها نامت.. فحين فتحت عينيها مرة أخرى، كان الظلام يلفّ الغرفة ومورفي يلعق وجهها بلهفة، ويئن في أعماق حنجرته.

قامت بجهد لتتحرك، ورفعت رأسها، تقاوم الإحساس بالغثيان الذي غمرها على الفور.. وصرت على أسنانها ثم أنزلت ساقيها عن الأريكة.. مادت الغرفة من حولها فعادت تجلس لدقيقة أو اثنتين إلى أن خف الدوار بما يكفي لتقف.

أحست بارتخاء في ساقيها، وضجيج في أذنيها فشعرت أنها تبعد ثانية واحدة عن الإغماء. استلقت من دون حراك دقيقتين أخريين، كان

خلالها مورفي يئن ويلكزها بأنفه المبلل، وبدأت تزحف نحو السلم.

أخذت تزحف على مؤخرتها، كل حركة ترج رأسها المتألم، وترسل سهاماً تخترق دماغها.. إن استطاعت أن تنهي ما يلزم مورفي، لاستطاعت العودة إلى الفراش، وستشعر بتحسّن في الصباح.. فعدوى فيروس الصيف، تمر بأسرع مما تأتي. لكنها وجدت، ما إن وصلت أسفل السلم، أن كل ما تستطيع فعله هو أن تجلس لحظات طويلة.

وفجأة رن جرس الباب. ودفعها نباح مورفي إلى حافة الجنون فأمسكت بالجدار، وتحسست مكان القفل. كل ما تريده هو توقف الصوت، وقد يكون من في الخارج قاتلاً مجنوناً يحمل فأساً، لا يهمها. وفكرت بهذا وهي تفتح الباب عاجزة.

ـ هنريتا؟

ووقعت بين ذراعي جارد تصيح بصوت خفيض: «أشعر أنني خائرة القوى.. خائرة حقاً.. هل يمكنك أن تهتم بمورفي؟».

وتعلقت به، ولم تسأل لماذا هو هنا.. إنه هنا، وهذا يكفي.

ـ بحق السماء يا امرأة.. لماذا لم تتصلي بي؟

كان يتمتم في شعرها وهو يرفعها بين ذراعيه ويحملها إلى الداخل، رافساً الباب خلفه ليقفله.

كانت هنريتا تعي أنهما يصعدان السلم بسبب ارتجاج رأسها.. لكنها لم تفتح عينيها إلا بعد أن أحست بنفسها توضع بلطف على الأريكة التي تركتها قبل دقائق.. وأجبرت جفنيها الثقيلين على أن ينفتحا لترى جارد راكعاً إلى جانبها ووجهه ينم عن القلق الشديد.

قال بصوت مهدىء: «لا بأس عليك.. كل شيء سيكون على ما يرام، أغمضي عينيك».

همست بضعف: «مورفي.. لم يأكل.. لو أنك تهتم به لأجلي؟ طعامه في الخزانة قرب البراد، و..».

ـ سأجده.. فلا تقلقي.

كانت أسنانها تصطك، لكن من دون إحساس بالبرد. فكرت بهذا مدهوشة بعد أن أصبحت حرارة جسمها لا تحتمل.. وأحست بالعطش.. عطشٍ شديدٍ جداً، وأجبرت نفسها على أن تركز: «مورفي لم يخرج منذ الصباح».

ـ قلت أغمضي عينيك هنريتا.

كان صوته مزيجاً من السخط الهادىء والقلق، وأكمل: «أنا قادر على إعطاء الكلب ما يحتاج إليه، حتى ولو كان مخيفاً مثل مورفي».

وأضاف، وهي تسترخي على وسائد الاريكة: «كيف بحق السماء تظنين أنك قادرة على المقاومة وأنت هكذا؟ هذه الأنفلونزا أهلكت نصف القوى العاملة في انكلترا في الأسابيع الأخيرة، لا يمكنك مقاومتها يا امرأة».

أنفلونزا؟ هي مصابة بأنفلونزا؟ لا عجب إذن أنها تشعر بمثل هذه الفظاعة.. وتمتمت بضعف: «كيف.. كيف عرفت أنني.. مريضة؟».

قال باختصار: «من رونالد. والآن سأعتني بمورفي، ثم أحضر لك شراباً.. وننطلق».

أفاقت هنريتا بعد دقائق على يدٍ باردةٍ تتحسس جبينها، وأدركت أن الصداع الذي يكاد يعميها قد ازداد سوءاً.

ـ حسن جداً.. يكفي هذا.

ولم تشأ النظرة الزرقاء الثاقبة أن تتعامل معها، وأغمضت عينيها مجدداً، وهي أضعف من أن تعترض حين قال لها: «ستأتين معي إلى منزلي حيث يمكن للسيدة باتن أن تعتني بك. ويمكن أن أبقي عيني عليك».

ـ لكن مورفي..

سأل بنعومة: «من أحبني أحب كلبي؟ سيأتي مورفي معنا بالطبع».

لن تستطيع الذهاب.. مع أن هذا سيكون كالنعيم لها.

ـ لا أستطيع..

قال متجهماً: «هنريتا، لن أجادلك.. ستأتين معي إلى فوردرنغهام

وسأستدعي طبيبي الخاص ليفحصك، ثم ستبقين قدر ما هو ضروري.. أفهمت؟».

وفهمت، وكانت أضعف من أن ترد وهي مستلقية على الأريكة، تحاول بحذر أن تتحرك ذات اليمين وذات اليسار قبل أن يعود جارد إلى جانبها، ليلفها ببطانية خفيفة.

ـ أنا.. أستطيع.. السير.

ـ لا تكوني سخيفة.

ورفعها بسهولة وكأنها طفلة صغيرة.

ـ مورفي ينتظر في الرانج روفر. ولقد جهزت لك بضعة أشياء، وأغراضه كذلك.. وإذا كان هناك شيء ضروري نسيته، فسأعود مرة أخرى.

استلقت هنرييتا في السرير الكبير في إحدى غرف الضيوف في فورذرنغهام. لم تكن تعي شيئاً سوى أن حنجرتها تلتهب وأن الصداع لا يظهر أي دليل على الانخفاض.

اهتمت السيدة پاتن بها وكأنها طفلة في الثانية من عمرها.. وأصرت على أن تبتلع هنرييتا كوباً من عصير الليمون الساخن، والعسل مع قرصين من الأسبرين.. ووصل الطبيب بعد قليل.

ـ ستشعرين بالأسوأ قبل أن تشعري بالتحسّن. لكن أسبوعاً في الفراش سيفيدك، مع كثير من السوائل ولا تشغلي بالك بالطعام.. تناولي الأسبرين والليمون. لا يمكن أن تحصلي على ممرضة أفضل من السيدة پاتن.

نظرت هنرييتا إليه بعينين زائغتين. وتمكنت أن تكشر بما أرادته أن يكون ابتسامة، قبل أن تعود إلى ذلك العالم الآخر الضبابي المؤلم. وبقيت على حالها ثلاثة أيام بلياليها.. تعي زيارة جارد، ومورفي، وكذلك السيدة پاتن المخلصة تجبر الأسبرين والليمون على النزول في حلقها في فترات منتظمة.

زارها الطبيب مرة أخرى في مرحلة ما.. لكن لم يصل إلى مسمعها سوى: «واضح أنها كانت منهارة قبل أن تصيبها الأنفلونزا بشكل قوي» و «يجب ألاّ تقلق.. فهي شابة وقوية» ولم تفهم هنرييتا أكثر من هذا.

وفي صباح يومها الرابع، استيقظت وهي تشعر أنها عادت إلى العالم الحقيقي. لا يزال الألم موجوداً، وكانت تشعر بالضعف. لكن الصداع الرهيب اختفى إضافة إلى الدوار الحاد والإحساس بالغثيان.

استلقت جامدة في السرير الرحب لساعة أو أكثر، تراقب الشمس تنير الغرفة عبر الستائر المغلقة، تتنعم بالتحرر من الهلوسة الغريبة التي عذبتها في الأيام الأخيرة. ولم تفكر كثيراً، بل أحسّت أنها قانعة هكذا، وكانت لا تزال مسترخية حين دخلت السيدة پاتن الغرفة ومعها فنجان شاي.

ابتسمت مدبرة المنزل لها: «هذا جيد.. تبدين أفضل حالاً.. صحيح أنك لا زلت ضعيفة.. لكنك أفضل حالاً بالتأكيد».

كافحت هنرييتا لتجلس، فوجدت أنها أكثر ضعفاً مما تظن.

ـ أنا آسفة.. لقد تسببت لك بكثير من المشقة.

ـ هيا الآن؟ أنا مسرورة لأنك تشعرين بالتحسن عزيزتي.. كاد السيد فنسنت المسكين يفقد صوابه من شدة القلق.

ـ حقاً؟

وأحست فجأة بفداحة الموقف الذي انتهت اليه. وانمحى الصفاء الذي غمر عقلها، وجسمها، وكأنه لم يكن البتة.

وسألتها مدبرة المنزل: «كنت ترهقين نفسك.. أليس كذلك؟ أنا لا اعترض على عمل المرأة.. لدي شقيقتان إحداهما طبيبة، والأخرى سكرتيرة قانونية.. وهما امرأتان من أروع ما يمكن أن تقابلي.. لكن هذا لا ينبغي أن يكون على حساب صحتك. يجب أن توازني نفسك عزيزتي.. عمل من دون مرح..».

ـ وستجدين نفسك في فراشي.

الصوت العميق الأجش جذب عيون الامرأتين نحو جارد، وابتسم بسهولة.. عيناه الزرقاوان اللامعتان، تطلعتا بخبث إلى خدي هنرييتا المحمرين.. وسأل بلطف وهو يدخل الغرفة: «هل أفهم من هذا أنك على طريق التحسن؟».

وتملكت هنرييتا فجأة مشاعر مختلفة.. وبسرعة.. أولها، هو أنها تماثل شيئاً قد تقرف القطة منه.. وثانيها، أن جارد يبدو مدمراً أكثر من العادة.. وكان مورفي ثالث ما فكرت به، وموضوع حديث آمن.

ـ أنا أفضل بكثير.. شكراً لك.. أين مورفي؟

قالت السيدة باتن: «إنه في المطبخ.. يتناول طعامه».

ـ أوه.. وهل كان طيباً؟

تقدم جارد إلى جانب السرير ليقف وينظر إليها بنظرة غريبة ارتسمت على وجهه الصلب الجذاب..

قال جارد بينما كانت السيدة باتن تغادر الغرفة وتقفل الباب وراءها: «كان مهذباً تماماً».

ـ أنا آسفة لتسببي بهذا الإزعاج.

وافق متجهماً: «لقد تسببت لنا بالقلق.. كان يجب أن أسافر إلى أميركا منذ يومين، ولقد أضعت علي فرصة صفقة مغرية.. إنها ثروة صغيرة».

ولم يبدُ منزعجاً.

نظرت هنرييتا إليه، وارتج فنجان الشاي قليلاً فوق صحنه.. أرادت أن تقول له الكثير، وأقله إنها آسفة على الصفقة المفقودة. لكن الكلمات خانتها.. ومع تحوّل الجو إلى ما يشبه التوتر ابتلعت ريقها مرتين.. وضعت الفنجان والصحن فوق الطاولة الصغيرة قرب السرير.. ونظرت حولها إلى الغرفة الجميلة المزهرة، وسألت: «هذا ليس سريرك حقاً.. أليس كذلك؟».

ابتسم بخبث: «أحدها.. في الواقع، أنا أنام في الطابق العلوي..

هذه إحدى غرف الضيوف وتعني بالنسبة للسيدة باتن، واجبات أقل. لكن إغراء أخذك إلى فراشي كان قوياً.. ومن الأفضل أن أعترف بهذا».

ثم فقد صوته رنة المزاح، وأكمل: «لماذا لم تتصلي بأحد هنرييتا.. أي أحد؟ ما الذي دهاك لمحاولة التخبط في المرض لوحدك وأنت تشعرين بالتعب هكذا؟ هل لديك رغبة في الموت.. أو شيء من هذا القبيل؟».

ردت بضعف: «بالطبع لا.. ظننت أن هذا مجرد رشح صيفي..».

هز رأسه ببطء: «لا أصدق هذا تماماً. ولست أدري ما إذا كنت لا تهتمين بنفسك.. لكنك بحاجة إلى من يعتني بك».

نظرت إليه غاضبة.. إنه يجعلها تبدو بنصف عقل.

ـ أنا لست هكذا.. وأستطيع المغادرة اليوم بما أنني تحسّنت.

هز رأسه مجدداً: «أرأيت؟».

وكان صوته مؤنباً، ولهجته كمن يتعامل مع طفل متمرد، وجعلها هذا تريد أن تظهر له لسانها، وقاومت هذا بكل قوتها.. ونظرت إليه متعالية وهو يضيف: «مجنونة».

ـ جارد..

لكنه خطف بقية كلامها بالانحناء فوقها ليلمس خدها بنعومة.. حين استقام، كان قد تركها محمرة مقطوعة الأنفاس وهو يبتسم ويسير نحو الباب: «لن تغادري قبل أن أعتقد أنا أنك بصحة جيدة. ضعي هذا في رأسك قبل كل شيء».

واستدار ببرود ينظر إليها متفرساً ثم أضاف بنعومة: «ولسوف نضع بعض القواعد الأساسية قبل أن تغادري، هذا هو الأمر الثاني».

ـ قواعد أساسية؟

ـ قواعد أساسية، كنت سأعطيك وقتاً هنرييتا قبل قرارك الأخير الطائش.

جعل الأمر يبدو وكأن إصابتها بالأنفلونزا نزوة طائشة، وتحوّلت نظرتها إلى ذهول.

أكمل بهدوء: «وقت لتعتادي على حقيقة أنني أحبك.. وأن حبي لا يعني أنني أريد أن أستولي عليك وأسيطر على كل جزء صغير من حياتك.. أنا أحبك.. أحب قوتك، مواهبك، كل شيء.. ولن أحاول تغيير أي شيء فيك أو إنكاره.. سيكون هناك أوقات ستعملين فيها باستقلالية عني.. وهذا أمر رائع.. رائع وحسب. لكنني سأكون موجوداً في المقاعد الخلفية.. في حال احتجت إلي».

- لا أعرف عمّا تتكلم..

أصبح صوته أجش عميقاً ومنخفضاً: «أنت امرأة لي.. هنريتا».

ووجدت نفسها ترتجف رداً على كلامه: «أقبلتِ هذا أم لا، فهذا أمر واقع. والآن.. قد يأخذ الأمر أشهر، أو سنوات، لكنك ستكتشفين ذلك في يوم ما.. كما حصل لي.. لأن الشعور بيننا ليس حدثاً طارئاً.. بل هو قدرنا.. محتوم مثل شروق الشمس وتكرار المد والجزر.. أنت لي، وأنا لك. ومهما كانت العوائق التي ستضطرين إلى مقاومتها إلاّ أنها لن تغير في الأمر شيئاً».

لم تتحرك.. لم تستطع أن تتحرك.. بل تابعت النظر إليه بعينين مضطربتين واسعتين.

وسألها بنعومة: «هل تظنين أنني لا أشعر بما تشعرين به؟ إنني غير قادر على الفهم ومذعور أمام القوة التي أستسلم فيها لشخص آخر. يكاد هذا يدفعني إلى الجنون.. وأنا أقول لك.. ظننت أنني سأجن لوقت ما، لكنني أدركت أن هذا أمر يجب أن نعمل على تجاوزه معاً.. معاً».

نظر إليها بثبات مكملاً: «هذا هو معنى الحب، لن أستسلم هنريتا، أبداً، ليس لأنني أريد أن أمتلكك أو أسيطر عليك أو أن أجعلك نوعاً من مخلوق عجيب غريب.. لكن لأنني أحبك، وهذا كل ما في الأمر.. وجزء من هذا الحب يعني أنني أريد أن أعتني بك، أحميك، ولن أعتذر لهذا. ومع الوقت ستثقين بي، وسيصبح الأمر سهلاً».

همست بصوت متكسر: «وماذا لو لم يصبح سهلاً؟».

طافت عيناه على وجهها بحنان: «لدي إيمان بك.. وأستطيع الانتظار إلى أن تكوني مستعدة، ولو من دون صبر.. فأنا لست هكذا.. لكنني سأنتظر.. هناك الكثير أتطلع إليه ليلهيني عن أي شيء آخر، بقية حياتنا، أولادنا.. أحفادنا».

حدقت به بعينين بائستين: «لا جارد».

همس ساخراً: «بلى جارد.. لكنني لن أقبل أن أبقى في مدار حياتك الخارجي بعد الآن، لذا من الأفضل أن تواجهي هذا الواقع الآن. وإذا هربت، فسألحق بك وأعيدك. ولن أعتذر عن هذا كذلك. أنا لست ميلقاين هنريتا.. اسمي جارد.. وسأكون ملعوناً لو تصرفت بشكل مختلف عما أشعره به هنا..».

وضرب صدره بوحشية: «..سوف تتعلمين أن تثقي بي.. الأمر سهل هكذا».

ثم أقفل الباب أمام وجهها المصدوم.

* * *

١٠ ـ هل تنتظرنا الحياة؟

أخيراً نهضت هنريتا من رقادها بعد ثلاثة أيام. وأذهلها في صبيحة حديثها مع جارد حين حاولت الوصول إلى الحمام لوحدها، أنها وجدت ساقيها غير مستعدتين للمهمة. لكنها تحسّنت تحسناً ثابتاً.. الراحة المفروضة عليها، أعطتها الكثير من الوقت لتفكر كذلك.. بين نوبات طويلة من نوم من دون أحلام..

وبما أن جارد أوضح نواياه، فقد بقي على مسافة محددة واضحة منها، وليس بطريقة باردة متباعدة، كما أكدت لنفسها وهي تسير من دون ثبات إلى غرفة الفطور.. مع ذلك، فإن هذا التباعد لم تتخيّله.

ردة فعلها نحوه أربكتها أكثر. كانت تريد أن ترمي نفسها بين أحضانه في كل مرة تراه. وبدلاً من ذلك، تراجعت إلى قوقعة صغيرة مستوحشة مؤلمة رهيبة.

كانت غرفة الإفطار خالية.. يبدو أن جارد قد غادر. وافترضت أنه سافر من أجل اجتماع في لندن، ذكره لها في الليلة السابقة.

خرجت إلى الحديقة بعد أن تناولت فطوراً خفيفاً من الخبز الجاف وعصير البرتقال. وحاولت أن تستنشق بضعة أنفاس من النسمات المنعشة قبل أن تستقر مع كتاب تقرأه.

كانت هنريتا وحيدة تماماً.. فتوجهّت إلى عريشة في منتصف مرجة خضراء، وجلست شبه مختبئة على مقعد خشبي أدفأته الشمس.

سمعت جارد ومورفي قبل أن تراهما، وعندما وصلا إلى مرمى النظر

في ملاذها.. حيث تستطيع أن ترى من دون أن يراها أحد.. أدركت أن مورفي أحب جارد من كل قلبه.. وكان الاثنان منشغلين في لعبة مجنونة مع قطعة خشب ضخمة.. ومن نباح مورفي المرح، وضحك جارد وكلمات التدليل، عرفت أن هذه ليست المرة الأولى التي يتمتعان بها معاً بهذه الطريقة.

ماذا دهاها لتقارن جارد بمورفي، ولو للحظة يسيرة؟

جلست مستوية، وأذناها تضجان، والدم يجري بقوة في عروقها.. هل كان ميلڤاين ليظهر عاطفة لحيوان هكذا؟ خاصة إذا كان أثيراً لديها؟ كان ميلڤاين لينظر إلى مورفي كتهديد له، كمنافس، شيء سيسلب إحساسها نحوه.

وأغمضت عينيها. منظر جارد مع مورفي وهما يعودان إلى المنزل مؤثر جداً، كم كانت حمقاء عمياء.

وهل كان ميلڤاين ليركض بمورفي إلى العيادة البيطرية ويخاطر مخاطرة كبيرة بنفسه؟ وهل سيبحث عنه أصلاً؟ وتلك المهمة التي أوجدها لها جارد، وتخلّيه عن نسبة كبيرة من التزاماته خارج البلاد ليقضي وقتاً أكبر في انكلترا.. هل كان ميلڤاين ليفعل هذا؟

كان إحساس ميلڤاين بقيمته الذاتية مبنياً على الحط من قيمتها. ولم يضّح في مشاعره نحوها.. حتى تلك اللحظات الأخيرة.. بل هي رغبة في الاستعباد والمناورة. وجارد ليس هكذا.. وتهاوت متراجعة فوق الخشب الساخن بينما كان العجب يتملكها.

بإمكانها الانتظار أسابيع أو أشهر.. وحتى سنوات.. لتترك للحياة أن تؤكد لها ما تعرفه سلفاً، أو تستطيع أن تخرج وتعيش إلى جانب الرجل الذي تحبه. وهي تحب جارد، أكثر مما اعترفت به حتى لنفسها. وبحبها له، يمكنها أن تنسى ميلڤاين.. أن تسامحه وتشكره على هدية الحياة الثمينة التي أعطاها لها في نهاية الأمر، وعليها أن ترتفع فوق الذكرى قبل أي شيء.

- هنريتا؟

وخرجت من أوهامها حين ناداها جارد، بصوت حاد قلق، وعندما وجدها مورفي حتى قبل أن ترد عرفت لحظة خوف للهجة جارد. لكن جارد هو الذي تكلم.. لا ميلفاين. وفي هذا كل الفرق.

- أنا هنا.

وخرجت من الظل إلى نور الصباح المتألق، ورأته.. طويلاً، أسمر، وسيماً.. يسير بلهفة عبر المرج الواسع الأخضر.

- لم نستطع أن نجدك.

وتكلف ابتسامة واهنة على شفتيه، لكنها كانت قد رأت العتمة في العينين البراقتين، ومسحت النظرة آخر وساوسها وشكوكها.. إنه يهتم بها إضافة إلى حبه لها.

ردت بنعومة: «لن أذهب إلى أي مكان».

لم ترغب في أن تضيع يوماً آخر سدى، أو ساعة من هذه الهبة المسماة حباً.

- لدي كل شيء أريده هنا.

للحظة، نظر إليها جارد بارتباك.. عيناه تتفرسان في وجهها.. وكادت ترى دماغه الحاد الملاحظة يحلل، ما إذا فهم خطأ.

قالت بجرأة مرتجفة: «لقد كنت غبية جارد. قررت ألاّ ألتزم مع أحد، ولا أعقد حياتي لأنني سأكون عندها آمنة، بعيدة عن أيّ أذى.. لكن، لو خسرتك فلا شيء أسوأ من هذا.. أنا أحبك وأثق بك. والأمر بسيط إلى هذا الحد.. أليس كذلك؟».

حدق بها للحظة أخرى تكاد لا تنتهي، ثم جذبها إليه بآهة تقول أكثر بكثير من أيّ كلمات. أدناها منه بلهفة، يضمها إلى جسمه الصلب بمحبة غامرة، وشعور مفعم بالشوق وتعلقا ببعضهما وكأنهما جسد واحد.

صرخ بها: «وهل ستتزوجيني؟ قريباً؟».

همست بمحبة: «بأسرع مما تريد.. بأسرع مما تريد يا حبيبي».

عانقها بحرارة، وتمتم فوق بشرتها الحريرية: «أعشقك حبيبتي.. وتعرفين هذا.. أليس كذلك؟ أنت شمسي، وقمري، ونجومي.. أنت سبب تعلقي بالحياة، يا حبي الجميل..».

وصمت فجأة.. وعلى الفور، وببديهة ولدت من هذا الحب، مدت هنريتا يديها، لتلامس الخدين الخشنين بأصابعها الناعمة، وتقول: «لا تتوقف.. أريدك أن تقول كل شيء.. أنت لي وأنا لك، ولم أعد خائفة».

واستطاعت أن تشعر بحرارة حبه وهما يقفان معاً.. ورحبت بإعلان الحب الصامت بشوق يماثل شوقه، وشدها إليه أكثر، وكأنه يطالب بحق مكتسب.. وارتجفت لقوة جسده الضخم.

تمتم بنعومة: «سنقوم بهذا بطريقة صحيحة.. لكنني لا أظن أنني قادر على الانتظار إلى أن نرتب زفافاً بملابس بيضاء».

ردت بصدق وقح: «لا أريد زفافاً بثوب أبيض.. أنا أريد الزواج منك فقط».

- إلى أيّ حدّ؟ ترخيص خاص يكفي؟

ردت بابتهاج شفاف: «ترخيص خاص يبدو رائعاً».

زفاف هادىء، لا يمكن أن يكون مختلفاً عن الزفاف المبهرج، المليء بزهور البرتقال، المبالغ فيه الذي عرفته مع ميلفاين.. وهذا بالضبط ما تريده.. وشيء واحد مؤكد.. أمها وشقيقها سيسقطان كل طلباتهما، متى عرفا من ستتزوج.

قال جارد: «ثم شهر أو شهران في مكان حار، ومنعزل جداً.. جزيرة صحراوية مثلاً.. وسأقوم بكل الأشياء التي كنت أحلم بها معك منذ أشهر».

ارتجفت هنريتا بترقب لذيذ: «حقاً؟».

أبعدها عنه قليلاً وهو يلتهمها بعينيه: «حقاً؟ أوه.. سيدتي.. لن تعرفي هذا حقاً».

فجأة أحست بأنه يتوقع منها المزيد، وقالت: «أنا.. لست خبيرة

جداً. ميلفّاين أول رجل، ولم يكن.. مغامراً».

قال برضى غير نادم: «أنا مغامر.. ولدي إحساس أن هناك امرأة جريئة تنتظر الخروج إلى الحياة».

ضحكت هنريتا.. وأحست بالطيش، والدوار.. وبالجنون. أذهلها ما أقدمت عليه، ولم تشعر بالندم. ليس هناك ندم.. إطلاقاً. مجرد اقتناع عميق، بأنها أخيراً رأت ما رآه قلبها منذ أشهر.

فجأة أحست بجدية مؤثرة: «أحبك.. أكثر مما تصورت يوماً أنني سأحب أحداً».

نظر جارد إليها، وقد ضاقت عيناه الزرقاوان في نور الشمس المبهر، وكان فكه حازماً لا يلين.. ثم تجعد وجهه بابتسامة، تلك الابتسامة النادرة التي كانت لها وحدها وهو يرفعها عن الأرض بحيث تعلقت يديها بقوة بعنقه، وتمتم: «وأنا أحبك.. أحب كل جزء صغير منك.. وسوف أبرهن هذا لك، لما تبقى من حياتنا».

وقربها إلى قلبه بشدة.. إلى جسمه القوي العضلات، ليتسبب بانقطاع أنفاسها في حلقها. وبحرارة حب قوية، قال لها إن السنوات القادمة ستكون ثمينة جداً. سنوات مليئة بالحب والضحك، بالعطاء والأخذ.. سنوات سوف يثمر فيها حبهما.. أولاداً وأحفاداً.. ويحافظ عليها باعتزاز.. وسوف يخلدان هذه الهبة بدورهما.

وهذا ما كان بالفعل!

* * *